الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يكثر شعر الحب فى الأدب العربى منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى فى إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جذبا للأسماع ، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسى للشعر العربى ، وهو أمر طبيعى لأنه يتناول عاطفة الحب الإنسانى الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة ، فيقع فريسة لحبها ، وتملأ قلبه وجدًا وشوقا إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماءة فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدلل عليه وتمتنع وقد تنأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تخمد ، وعبثا يتذلل لها ويستعطف ويتضرَّع ، ومع ذلك لا يذوى الأمل فى نفسه بلقائها أبدا ، فهو دائما مؤمل فى اللقاء بعد الهجران وعلى الأقل فى الرؤية بعد الحرمان . وبلغ الحب ببعض الشعراء قديما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلى يشيع على كل لسان ، فقد ظل يغنى باسمها وعيناه مصوَّبتان إلى خيالها ، فهو لا يرى فى ليله ولا فى نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح فى البوادى معاشرًا آرامها ، إذ هجر حيَّها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذى لا يزال بصره فيه شاخصا إليها . أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيق ساحاته ، وإنه ليفر منه منطويا على نفسه حالما بليلى وعالمها الساحر خالعا الوهم على الحقيقة ذاهلا عن كل ما حوله ذهول المجانين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلى . وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المغرق فى الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبته فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها

هالة سحرية ، وبذلك تستحيل فى خيال الشاعر المحب لها أو العاشق إلى كائن شعرى ساحر . وقد يفيق المحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفيق بتاتا .

ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامى من شعراء العصر العباسى الأول هو ديك الجن الحمصى ، فقد ظل يتغنى بمحبوبته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وبهتانا ، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم . وظل البحترى مثله يتغزل بصاحبته « عَلْوة الحلبية » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك فى كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربى – على مر الأزمنة – أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحترى ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة بحلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان فى القرن السابع الهجرى . على أن بين الشعراء من لم يقتصر فى غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشعر عنده بلوعة حقيقية . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه العفيف النقى الذى أضاف إليه الإسلام بمثاليته عفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر المحب يصور فيه وجده وهيامه وكلفه بصاحبته كلفا شديدا وعذابه فى هذا الكلف عذابا متصلا . وفى الغزل بجانب ذلك الغزل الحسى الذى يصور جمال المرأة ومفاتنها تصويرا ماديا تطغى فيه الغرائز وتجمح العواطف . وظل هذان النوعان : الملائكى الطاهر والمادى الصريح يتقابلان فى الغزل العربى طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كُشاجم فى صاحبة له[1] :

السِّحْرُ فى ألحاظها الفاتكه ... والرُّوحُ من إعراضها هالكهْ
والقهوةُ الصَّهْباء من رِيقها ... والمسكُ من أصداغها الحالكه
مَنْ لم ير الدرَّ وتأليفَهُ ... فى سِلْكه فليرها ضاحكه
قد كتب الحسنُ على خَدِّها ... طُلَّ دمٍ أنتِ له سافكه

والأبيات تخلو من العاطفة المشبوبة ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص ١٣٩ .

محفوظة ، فريق صاحبته خمر والشعر على أصداغها مسك وأسنانها درّ ، وربما كانت الصورة فى البيت الأخير بديعة ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته ، وهى مبالغة فى الخيال والتصور . ولأبى فراس الحمدانى أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول[1] :

سكرتُ من لَحْظِهِ لا من مُدامتهِ ومال بالنَّوم عن عينى تمايُلُهُ
وما السلافُ دهتْنى بل سوالفُه ولا الشَّمول ازدهتْنى بل شمائلُهُ
أَلَوى بِلُبِّىَ أصداغٌ لُوِين لَهُ وغال قلبىَ ما تحوى غلائلُه

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبته وعينيها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية ، ويقول ليست السلافة أو الخمر هى التى دهته بل صفحتا جيدها البديع ، وكذلك ليست الخمرُ أو الشَّمول هى التى استخفَّته بل خصالها الحلوة وما أروع أصداغ شعرها المنسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلُها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالى حبه على طريقة عمر بن أبى ربيعة[2] ، إذ يقول إنهما ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فتفرَّقا . ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار ، يحاكى فيها أبا فراس وابن أبى ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديداته ، وهى قديمة فى الشعر العربى . ولابن سنان الخفاجى[3] :

أترَى طيفكمُ لما سَرَى أخذ النومَ وأعطى السَّهَرا
أم ذُهِلْنا وتمادى ليلُنا فتوهمنا العشاء السَّحَرا
يا عيونًا بالحمى راقدةً حرَّم الله عليكنَّ الكَرَى
سَلْ فروعَ البان عن قلبى فقد وَهِمَ البارقُ فيما ذكرا

وليس فى الأبيات لهفة ولا لوعة ، ودعاؤه على صاحبته أو صواحبه – فى البيت الثالث – أن لا يذقن النوم دعاء ناب على ذوق المحبين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هى أبيات فى الغزل أو النسيب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله . ولابن الخياط أشعار غزلية

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ٣٠٢/٢
(٢) ديوان أبى فراس ٣٩/٢ .
(٣) ديوان ابن سنان الخفاجى (طبع المطبعة الأنسية) ص٣٩

كثيرة يقدم بها لمدائحه نحس فيها لوعة المحب وحرقة فؤاده من مثل قوله[١] :

خُذَا من صَبَا نَجْدٍ أماناً لقلبهِ فقد كاد رَيَّاها يطيرُ بلُبِّهِ
تذكُّر والذكرى تشوقُ وذو الهوى يتوقُ ومَنْ يَعْلَقْ به الحبُّ يُصْبِهِ
غرامٌ على يأسِ الهوى ورجائهِ وشوقٌ على بُعْد المزار وقُرْبِهِ
إذا خطرتْ من جانب الرَّمْل نفحةٌ تضمَّن منها داءه دون صَحْبِهِ
أغارُ إذا آنستُ فى الحىِّ أنَّةً حذارًا وخوفاً أن تكون لحبِّه

فحب صاحبته النجدية استأثر بقلبه حتى ليطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن يطير شَعاعا ، وإنه ليذكرها ليل نهار وتُصْبيه ، ويأمن لهجرانها ولألسنة أهلها وسيوفهم كما يقول فى القصيدة . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتنسَّم فى الصَّبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحمل له نفس الداء ، داء الحب وعذابه . ويبالغ فى وصف غيرته عليها ، حتى ليخشى أن تكون كل أنَّة يسمعها فى الحى من محب لها محموم بحبها ودائه العضال . ولمعاصره العَزِّى المتوفى سنة ٥٢٤ للهجرة[٢] :

إشارةٌ منكِ تغنينى وأحسنُ ما رُدَّ السلام غَدَاةَ البَيْن بالعَنَمِ[٣]
حتى إذا طاح عنها المِرْطُ من دَهَشٍ وانحلَّ بالضَّمِّ سلكُ العقد فى الظُّلَمِ[٤]
تبسَّمتْ فأضاء الليلُ فالتقطتْ حبَّاتِ مُنْتَثِرٍ فى ضوءِ مُنْتَظِمِ

وهو تكفيه الإيماءة من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول إنه سقط عنها المرط أو الإزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها ، وتبسمت فأضاء ظلام الليل وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة فى ضوء اللؤلؤ المنتظم فى ثغرها البرَّاق الفاتن .

ودخل القيسرانى مدينة أنطاكية فى أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة عرضت له ، وكان فى الثانية والستين من عمره ، فنظم مقطَّعات يشبِّب فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تسمى ماريًّا ، خلبت لبه ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله[٥] :

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٧٠
(٢) ابن خلكان ٥٩/١
(٣) العنم : نبات أزهاره قرمزية
(٤) المرط : كساء من حرير أو صوف تتلفع به المرأة
(٥) الخريدة (قسم الشام) ١٢٤/١

عفائفُ إلا عن مُعَاقرة الهَوَى ضعائفُ إلا فى مغالبة الصَّبِّ
ولما دنا التوديع قلتُ لصاحبى حنانيك سِرْ بى عن ملاحظة الرَّبِ
تقضَّى زمانى بَيْنَ بَيْنٍ وهِجْرةٍ فحتامَ لا يصحو فؤادىَ من حُبِّ
وأهوى الذى يَهْوِى له البدرُ ساجدًا ألستَ ترى فى وجهه أثرَ التُّرْبِ

والصورة فى البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفة البدر من أثر الترب العالق بجبهته لتوالى سجوده لصاحبته ولجمالها الساحر . ويقول إن زمانه تقضَّى فى حرمان متلاحق من البعاد والهجرة المتصلة . ولحماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله[1] :

ألا هل لماضى العيشِ عندكِ مرجعُ وهل فيه بعد اليأس للصَّبِّ مَطْمَعُ
لقد أُولعتْ بالصَّدِّ عنى وإننى لفُرْقتها ، ما عشتُ ، بالوجد مولَعُ
أضاحكُ حُسَّادى فيغلبُنى البُكا وأكتمُ عُوَّادى وإنى لموجَعُ
إذا خطرتْ من ذكرها لىَ خطرةٌ تكاد لها أنياطُ قلبى تقطَّع

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لا يزال حبل الرجاء ممدودا ، مع ولوعها بالصد عنه والإعراض ومع تعلقه بها ووجْده وجدا ملتاعا . ويضاحك حساده تمويها ويغلبه البكاء ويكاتم زواره وهو موجع القلب والحشا ، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحسَّ كأن نياط فؤاده وعلائقه تتقطع تحسرا ولوعة . وقد أنشد له العماد غزلا كثيرا . ويشكو ابن النقار كاتب الإنشاء الدمشقى المتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبته قائلا[2] :

مَنْ منصفى من ظالمٍ متعنِّتٍ يزداد ظلما كلما حكَّمتُهُ
ملَّكته روحى ليحفظ مُلكَه فأضاعنى وأضاع ما ملَّكته

وهى تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى ضعف ، وويل له لقد ملَّكها روحه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هى تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خَواء بلا روح ، فما أشقاه . ويقول فتيان الشاغورى متغزلا[3] .

ومهفهفٍ بلغَ المنى بصفاتهِ حركاتُ غُصْنِ البان من حركاتِهِ

---

(١) الخريدة ٢/١٣٧
(٢) الخريدة ١/٣١٥
(٣) الديوان ص ٦٤

والشمسُ تخجَلُ من ضياء جَبِينِهِ والجُلّنارُ يَغارُ من وَجناتِهِ
أضحى الجمالُ بأسره فى أسره فكأن يوسف حاز بعضَ صفاتِهِ
لا تَطْمَعَنْ يا عاذلى فى سَلْوتى عنه فما أسلوه ، لا وحياته

وهو يصور صاحبته مهفهفة أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه المرأة من حسن وجمال ، ويقول إن غصن البان الذى يميد ملاحة حركته مشتقة من حركاتها ، ويجعل الشمس تصفرّ خجلا من ضياء جبينها ، بينما يغار الجلنار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر من وجناتها المشربة بالحمرة القانية ، ويجعلها تحوز الجمال بأسره ، حتى لكأن يوسف عليه السلام إنما حاز منه أطرافا ! ويتوجه إلى عاذله باللوم ، فلن يكفّ عن حبه ولن يسلو صاحبته أبدا .

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة(١) :

وتنبّهتْ ذاتُ الجناح بسحرةٍ بـالـواديين فـنـبّـهتْ أشـواق
وَرْقاءُ قد أخذتْ فنون الحزن عن يعقوبَ والألحانَ عن إسْحَاق(٢)
أنّى تُباريني جَوًى وصبابةً وكآبةً وأسًى وفيضَ مآقِ
وأنا الذى أُملى الجوى من خاطرى وهى التى تُملى من الأوراقِ

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوى الحمامة الورقاء وصبابتها لأليفها وحزنها الدفين ، ويقول إنه يملى من خاطره حُرقته ولوعته ، بينما هى تملى من أوراق الشجر وتروى عنه ذلك الوجد . ويقول المحّار الحلبى المتوفى سنة ٧١١ للهجرة(٣)

ما بثَّ شكواه لولا مسّه الألمُ ولا تأوّه لولا شفَّه السَّقَمُ
ولا توهّم أن الدمعَ مُهْجته أذابها الشوقُ حتى سال وهْو دَمُ
يُبْدِى التجلُّدَ والأجفانُ تفضحهُ كالبرق تبكى الغَوادى وهْو يبتسم
يمسى ويصبح لا صَبْرٌ ولا جَلَدٌ ولا قـرارٌ ولا طَيْـفٌ ولا حُلُمُ

والمحار يقول إنه لم يَشْكُ إلا بعد أن برح به الألم ولا أنَّ إلا بعد أن شفه السقم وما كان ليتوهم

---

(١) الخزانة ص ٣٢٦

(٢) يعقوب هو النبى يعقوب وبكاؤه على ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن معروف.. وإسحاق هو إسحاق الموصلى أشهر المغنين الملحنين فى العصر العباسى .

(٣) فوات الوفيات ٢٢١/٢

أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دمًا قانيا . ويمسى ويصبح وقد عزه الصبرّ والتجلد وتملكه قلق لا حدَّ له ، وضاع منه كل شيء حتى الطيف فى المنام ، وحتى الأحلام إذ لايزال مسهَّدًا لاينام .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحب على كل لسان من مثل قول فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة[١] :

طرقتْ طروقَ الطيفِ وَهْنًا مَيَّالةُ الأعطاف حُسْنا
مَصْقُولةُ الخَدَّين مثـ ـل السَّيف ألحاظاً ومَتْنا
فى حُلَّةٍ من جِنْسِ ما يكسو الربيعُ الغُصْنَ دَكْنا
الدَّلُّ يَنْبت من مسا حبِ ذَيْلها والحُسْنُ يُجْنَى
لو خاطبتْ وَثَناً لحـ ـنَّ مع الجمود لها وأنَّا

وليس فى القطعة لوعة ، بل هو يصف جمال صاحبته ودلَّها وحسنها ، ويقول : لو خاطبتْ وثنا من الأحجار لحنَّ لها وأنَّ أنينا لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب والوجد مثل محمد الحشرى المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل[٢] :

مَنْ عَذيرى فى حبِّ طفْلٍ لعوبٍ عوَّدوه سَفْكَ الدِّما فحَلاَ لَهْ
كلما صَدَّ عن سوايَ دَلالاً صَدَّ عنى تبرُّمًا وملالَهْ
لست أنسى يوم الفراق وقد أدْ ركَ من شملنا النَّوى آمالَهْ
غَصَبَ البَيْنُ من يدى كلَّ قَدٍّ سرقَ الغُصْنُ لينَه واعتدالَهْ
مَرَّ نَشْوَانَ من جَوًى يتثنَّى ثَقَّل الوردُ غُصْنَه فأمالَهْ

والقطعة تزخر بتصاوير بديعة ، تصور خصب الخيال عند الحشرى ، فقد عوَّدوا صاحبته الطِّفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلالها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن الغصن سرق لينه واعتداله من قد صاحبته وقوامها اللين الممشوق وينفذ إلى صورة طريفة ، فصاحبته تتثنى لثقل الورد المتوهج على خدودها الفائقة . وحرى بنا أن نترجم فى إجمال لبعض شعراء العصر الغزلين .

---

(١) نفحة الريحانة (طبعة الحلبى) ٢/٥٢٧ .

عبد[1] المحسن الصورى

هو عبد المحسن بن محمد الصورى ، أحد الشعراء المجيدين المبدعين ، وفيه يقول الثعالبى : « أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعانى رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان . توفى سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حَيُّوس الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة مُعَرِّى بشعره ، وكان يفضله على أبى تمام والبحترى والمتنبى . ويُرْوَى أنه مرَّ فى طريقه إلى حلب بشاعر المعرَّة بل الشام بل العالم العربى لزمنه : أبى العلاء ، وجرى بينهما حديث فى الشعر والشعراء وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصورى بقصر أشعاره وأنه لا ينظم فى الغالب إلا مقطَّعات فقال له ابن حيوس : هو أشعر من طويلك يقصد المتنبى ، فمدَّ إليه أبو العلاء يده وقبض على أعلى ثوبه قائلا : الأمراء لا يناظرون ، يعنى أنه لا يقارَن بالمتنبى . وكان أبو العلاء معجبا بالمتنبى إعجابًا شديدا حتى سمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصورى لا يدفع أنه مجيد فى قصاره إجادة رائعة . وهو فيها يقترب فى فنه من أبى تمام فى دقائق تصاويره وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خفاجة الأندلسى يعجب بأشعاره حتى ليقرنه فى مقدمة ديوانه بالشريف الرضى ومهيار قائلا : إنه تملَّكته فى شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وألفاظهم الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا فى ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصورى ألهمه هذه المقطوعة أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعا يتغزل غزلا رقيقا ممتزجا بالطبيعة وجمالها الهاجع فى الكون ، وكأنه يضع أيدينا على خصائص عبد المحسن فى غزله ، فهو فيه يمزج بين المحبوب وعناصر الطبيعة مزجا فيه كثير من الطرافة فى التصوير كقوله :

بالذى ألهم تَعْذيـ ـبى ثناياكِ العِذابَا
والذى ألْبس خَدَّيْـ ـكِ من الورد نِقابا
والذى صيَّر حظِّى منكِ هَجْرا واجتنابا
يا غزالاً صاد باللَّحْـ ـظِ فؤادى فأصابا
ما الذى قالته عينا كِ لقلبى فأجابا

(١) انظر فى ترجمة عبدالمحسن الصورى وأشعاره اليتيمة ٢٩٦/١ وتتمة اليتيمة ص ٣٥ وابن خلكان ٢٣٢/٣ وعبر الذهبى ١٣١/٣ والنجوم الزاهرة ٢٦٩/٤ ومرآة الجنان ٣٤/٣ والشذرات ٢١١/٣ وديوانه مفقود .

فهو يصل بين رُضاب الثنايا فى ثغر صاحبته وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجعل الحمرة على وجنتيها وردا تنتقب به . وهو بعد فى التصوير . ويجعلها غزالا من نوع غريب ، فهى غزال لا يُصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخلب القلوب فتلبيه طائعة مستجيبة .

وقد استلهم ابن خفاجة هذا الجانب فى غزل عبد المحسن الصورى واستضاء به ، كما استضاء واستلهم فى أشعار أخرى له جانبا ثانيا فى غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدماثة والنعومة على نحو ما نجد فى قوله :

أترَى بثأرٍ أم بِدَيْنِ ... علقتْ محاسنُها بِعَيْنِى
فى لحْظِها وقَوامِها ... ما فى المهنَّد والرُّدَيْنى
وبوَجْهها ماءُ الشبا ... بِ خليطُ نار الوَجْنتين
بكرتْ علىَّ وقالتِ اخْـ ... ـتَرْ خَصْلَةً من خَصْلتين
إما الصدودُ أو الفرا ... قُ فليس عندى غيرُ ذَيْنِ
فأجبتُها ومدامعى ... منهلَّةٌ كالمِرْزَمَيْنِ[1]
لا تفعلى إن حان صَـ ... ـدُّكِ أوفراقُك حان حَيْنى
وكأنما قلتُ اذهبى ... فمضَتْ مسارعةً لبَيْنى

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختيارا دقيقا ، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المقتطفة من وزن الكامل المجزوء . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التى تمكن لها بحلاوتها وعذوبتها فى الآذان ، بل فى القلوب والأفئدة . ويقول فى صُدْغ شعر مرسل بين أذن صاحبته ووجنتيها وقد توقف مائلا منحنيا :

جَنَى ما جَنَى وانْصَرَفْ ... وأنكرَ ثم اعترفْ
سلوا صُدْغه لِمْ جَرَى ... ولما جَرَى لِمْ وَقَفْ
وكان على أنَّه ... يجوز المَدى فانْعَطَفْ

وهو تصوير بديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجماله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجرى ثم يقف ، وهو يسترسل ثم

(١) المرزمان : نوءان شديدا المطر

ينعطف . وكان الشعراء يغارون على صواحبهم ، ويذكرون ذلك فى أشعارهم ، أما عبد المحسن فيقول :

تعلَّقتُه سكرانَ من خمرة الصِّبا ... به غفلةٌ عن لوعتى ولهيبى
وشاركنى فى حبِّه كلُّ أغيدٍ ... يشاركنى فى مهجتى بنصيب
فلا تُلْزمونى غيرةً ما عرفتها ... فإن حَبِيبى مَنْ أحبَّ حبيبى

وهو فى ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يغار ممن يحب حبيبه ولا يكرهه أو يمقته ، بل أعجب العجب أنه يحبه ، وهى مبالغة مفرطة فى الرقة ورهافة الشعور .

ابن[1] منير

هو أحمد بن منير الطرابُلسىّ ، ولد فى طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغنى فى أسواقها ، وأخذ ابنه فى نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول العماد الأصبهانى كان شيعيا غاليا ، ويقول ابن خلكان : «كان رافضيا» . وكان هجاء خبيث اللسان ، وكثر هجاؤه فسجنه بورى بن طُغْتكين صاحب دمشق (٥٢٢ – ٥٢٥ هـ .) وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بورى على أن يغادر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بورى ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله ينزل فى بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشَيْزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر ، وكان فى أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب. وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكى على الصليبيين فى بادين وغيرها من ساحات الحرب فى الشام. وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرُّها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التى أسَّسها حملة الصليب. وأقام ابن منير حينئذ بحلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسرانى – بسبب المنافسة – معركة هجاء حامية الوطيس . وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكى ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه فى غزواته ، واتخذه نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق فى بعض المهام ، ولم يلبث أن توفى بحلب سنة ٥٤٨ .

---

(١) انظر فى ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام) ٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسى ٣٢٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ١٤٦/٤ .

وتناول ابن منير فى شعره أغراضا مختلفة فى مقدمتها المديح ، ومرَّ بنا – فى غير هذا الموضع حديث عن مديحه لعماد الدين زنكى وابنه نور الدين فى انتصاراتهما الرائعة على حَملة الصليب ، ويُشيد العماد الأصبهانى بشعره وروعته . وكان يكنى أبا الحسن ويلقَّب المهذب وقال فى وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ ، أرقُّ من الماء الزُّلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من نَيْل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنية . وله هجاء كثير. وكان يجيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفى رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صفَّى مشاعره ورقق أحاسيسه وملأه بوجد متقد لا تخمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ ركَّبَ البَدْرَ فى صَدْرِ الرُّدَيْنِىِّ ... وموَّه السحرَ فى حَدِّ اليمانىِّ
وأنزل النَّيِّر الأعلى إلى فَلَكٍ ... مَدارُهُ فى الكِساء الخُسْرُوانىِّ
طَرْفٌ رَنَا أم قِرابٌ سُلَّ صارمُهُ ... وأغيدٌ ماسَ أم أعطافُ خَطِّىٍّ
أذلَّنى بعد عِزٍّ والهوى أبدًا ... يستعبد اللَّيْثَ للظَّبْىِ الكِناسىِّ[1]
أما وذائبِ مسكٍ من ذوائبهِ ... على أعالى القضيب الخَيْزُرانىِّ
وما يُجِنُّ عقيقىُّ الشِّفاه من الـ ... ـرِّيق الرَّحيقىِّ والثَّغْر الجُمانىِّ
أربَى علىَّ بشتَّى من محاسنه ... تـألَّفتْ بين مسموعٍ ومَرْئىِّ

والصور فى الأبيات طريفة غاية الطرافة ، فهو يتعجب من بدر يراه فى صدر رمح ردينى مهيَّىءٍ لإصابة المحب فى الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين مموَّهًا فى حد السيف اليمانى وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض فى كساء فارسى حريرى . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سُلَّ سيفه القاطع ، وهل هو بإزاء قَدٍّ شائق ناعم يتثنى أو بإزاء أعطاف رمح خَطِّىٍّ قاتل ، ويقول إن الهوى يستعبد الليث الفاتك للظبى الوادع الذى يعيش فى كناسه أو مأواه الآمن ، ويرى ذوائب الشعر على أعالى هذا الغصن الخيزرانى الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاه فوراءها الثغر الفضى من الأسنان والريق الرحيق السائغ . وهى صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضا طريفا . ويقول :

أتُرَى يَثْنيه عن قسوتهِ ... خَدُّه الذائب من رِقَّتهِ

(١) الكِناس : مأوى للظبى فى الشجر يستتر به

أفأستنجده وهْو الذى لَوّن الدمعَ على صِبْغتهِ
ولهذا قَوْسُــه مُوتَــرَةٌ تستمدُّ النَّبْلَ من مُقْلتهِ
قمرٌ لا فخرَ للبَدْرِ سوى أنه صِيغَ على صورته
صُدْغُه كرمةُ خمرٍ قُسِّمتْ بين خَدَّيْه إلى نَكْهتهِ
أتخالُ الخالَ يعلو خدَّه نَقْطَ مسْكٍ ذاب من طُرَّته
ذاك قلبى سُلِبَتْ حبَّته واستوتْ خالا على وَجْنَتِه

والقطعة تموج بالصور ، فخدُّ صاحبته يذوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القانى ، وإن قوس حاجبها لمشدود والنبل فى مقلتها يستمده . وقد بلغت من الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صيغ على صورتها ، وكأن صدغيها أو خصلتى الشعر المرسلتين على خديها كَرْمَةُ خمرٍ قسمت بينهما واستحالت رضابا فى ثغرها يرشفه المحب . ويقول : لا تظن الخال على خدِّها نقطة مسك سقطت من طُرَّة شعرها ، بل هو حبَّة فؤاده سلبتها من قلبه وأتاحتها لوجنتها الفاتنة . ونكثر مثل هذه الصور البديعة فى شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وتَوقَّدَتْ فى الرَّوْضِ من وجَناتهِ نارُ الحياء يشبُّها ماءُ الصِّبا[1]

وقوله :

وكم له فى كبدى لَسْعَةٌ بُرودها الدِّرْياقُ من فيهِ[2]

وقوله :

سَلَّمتُ فازورّ يَزْوِى قوسَ حاجبهِ كأننى كأسُ خمرٍ وهْو مخمورُ

وقوله :

قمرٌ ما طلعتْ طَلْعَتُهُ قطُّ إلا سجدَ البدرُ لها

وغزلياته تتردد بين الجزالة والنصاعة فى الألفاظ وبين الرشاقة والعذوبة ، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل فى مملوكه « تتر » أنشدها الحموى فى خزانته تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة ، وبحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

---

(١) يشبها : يوقدها .
(٢) برودها : شرابها . الدِّرياق : الترياق الشافى

الشاب[1] الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمسانى ، نشأ أبوه فى دمشق ، وخدم الدولة فى عدة جهات ، وعمل كاتبا وشيخا للصوفية وانتظم فى سلكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها فى خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم « سعيد السعداء » وولد له حينئذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر فى مثل قوله :

يا ساكنى مصرَ شَمْلُ الشوقِ مجتمعٌ بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاءُ

والتحق أبوه بالدواوين فى دمشق ، وولى هو عالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون فى دورهم أو فى المتنزهات ، غير أنه لم يعش طويلا ، إذ عاجلته المنية فى الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ .

وقد تناول الشاب الظريف فى شعره أغراضا مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعى وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفى وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربى ، وكأنما تمثل ما فى أشعارهم جميعا من وجد قوى حار ، وبثَّ منه الكثير فى غزله ، مصورا ما يثير الحب فى القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضا ذلك فى لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفى شعره ورقته ينقل ابن شاكر عن ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره :

« نسيم سَرَى ، ونعيم جرى ، وطيف لابل أخف موقعا منه فى الكرَى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رقَّ شعره فكاد أن يُشرَب ، ودقَّ فلا غرو للقُضُب (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رشيق الألفاظ ، سهل على الحفَّاظ ، لا يخلو من الألفاظ العذبة ، وما تحلو به المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر » .

---

(١) انظر فى الشاب الظريف وأشعاره فوات الوفيات لابن شاكر ٤٢٢/٢ والنجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانه لابن حجة الحموى ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت .

وهى شهادة قيمة لابن فضل الله فى الشاب الظريف وشعره غزلا وغير غزل ، إذ يموج شعره بالرقة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل فى صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشرهم فى نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تُخْفِ ما فعلتْ بك الأشواقُ ... واشْرَحْ هَواك فكلُّنا عُشَّاقُ
فعسى يُعينك من شكوتَ له الهَوَى ... فى حَمْله فالعاشقون رفاقُ
لا تجزعنَّ فلستَ أولَ مُغْرَمٍ ... فتكتْ به الوجناتُ والأحْداق
واصبرْ على هجرِ الحبيب فربما ... عاد الوصالُ وللهوى أخلاق
يا ربِّ قد بَعُدَ الذين أحبُّهم ... عنى وقد ألفَ الفراقَ فراقُ

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، وهى تلتصق بالنفس لا لما قاله ابن فضل الله العمرى من أن الشاب الظريف كان يستخدم الكلمات العامية ، فليس فيها من العامية شىء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على ألسنة العامة مع أنها عربية فصيحة ، مما يُشيع الاستواء فى عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب فى تحدره ورقته وانطلاقه دون أى عائق لفظى ، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أعزَّ الله أنصار العيونِ ... وخلَّدَ ملكَ هاتيك الجُفونِ
وضاعفَ بالفتور لها اقتدارًا ... وإن تك أضعفتْ عقلى ودينى
وأبقى دولةَ الأعطاف فينا ... وإن جَارتْ على قلبى الطَّعين
وأسبغَ ظلَّ ذاك الشَّعْرِ منه ... على قَدٍّ به هَيَفُ الغصون

وهو دعاء لصاحبته ملىء بالظرف والرِّقَّة والدماثة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض من عالم الجمال والسحر ، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشرره تأثيرا فى القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته فى الصميم : فى قلبه . ويستمر فى دعائه : أن يسبغ الله ظل ذاك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لى من هواك بَعِيدُه وقريبُهُ ولك الجمالُ بديعُه وغريبُهُ
يا من أعيذُ جماله بجلالهِ حذرًا عليه من العيون تُصيبُهُ
إن لم تكن عينى فإنك نورُها أو لم تكن قلبى فأنت حَبيبُهُ
هل حرمةٌ أو رحمةٌ لمتيَّمٍ قد قَلَّ منك نصيرُه ونصيبُه
لم يبق لى سرٌّ أقول تذيعُه عنى ولا قلبٌ أقول تُذيبهُ
والنَّجْمُ أقْرَبُ من لِقاك مَنالُه عندى وأبعدُ من رضاك مَغيبُه

والأبيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبته بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهى ليست جميلة فحسب بل هى أيضا جليلة ، وهو يعيذ جمالها بجلالها حذرا من عيون الحاسدين . وهى نور عينه وَحبَّة قلبه ، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أوحرمة الحب لعلها تنيله شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه فى حبها ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حبها حتى ذاب التياعا لطول يأسه من لقائها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقائها منالا وأبعد من رضاها مغيبا . وهو فى غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله :

بِتَثَنِّى قوامك الممشوقِ وبأنوار وجهك المعشوقِ
جُدْ بوصلٍ أوزورةٍ أو بوعدٍ أوكلامٍ أو وقفةٍ فى الطريقِ
أو بإرسالك السلامَ مع الرِّ يح وإلا فبالخيالِ الطَّروقِ

وتدل تمنياته فى وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدماثة والظرف والتدله فى الحب وانقياد جذوته فى فؤاده . ولكل ذلك سماه معاصروه بحق « الشاب الظريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

حسن[1] البورِينىّ

هو حسن بن محمد البورينىّ ، ولد بالأردن فى قرية صَفُّورية لسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

---

(١) انظر فى حسن البورينى وشعره ريحانة الألبا ٤٢/١
وخلاصة الأثر ٥١/٢

المقدس ، وفيه أتم تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس فى مدارسها والوعظ فى مساجدها . وتولى منصب القضاء فى الحج الشامى سنة ١٠٢٠ . وكان عالما ثبتا حُفظة فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفى بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود . وكان سُنِّيًا شافعيا . وله كتاب فى تراجم الأعيان لا يزال مخطوطًا بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المحبى فى كتابه خلاصة الأثر .

وكان البوريني شاعرًا مجيدًا ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة فى مكتبة كوبريلى بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الخفاجى : « ديباجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكتة عطارد التى يفتخر بها الفخر » وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستق من نفس المعين الذي استق منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفى وما فيه من وجد ملتاع ، ويكفى أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبيعى أن يتأثر بحبه الإلهى الظامئ أبدا وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصى ، تصور الحب الملتاع الذى يصحبه دائما الفراق والحرمان ، فما يكاد يهنأ بالحب لحظة حتى ينغّص له غراب البين ، ويظل فى نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبته بمثل قوله :

يقولون فى الصبح الدعاءُ مؤثِّرٌ ... فقلت نعم لوكان ليلى له صُبْحُ
وياعجبًا منِّى أرومُ لقاءهُ ... وفى جَفْنه سَيْفٌ ومن قَدِّه رُمْحُ
وإنسانُ عينى كيف ينجو وقد غدا ... يطول له فى لُجِّ مَدْمعه سَبْحُ
وليس عجيبا أنَّ دمعىَ أحمرٌ ... وفى مهجتى قَرْحٌ وفى مقلتى رَشْحُ

فهو يعيش بدون صاحبته فى ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقاءها وهى مسلحة بجفنها الساحر وقوامها الممشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التى يغرق فيها إنسان عينيه ، ومازالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دما ، ويشعر كأن فى مهجته جرحا لا يبرأ وفى مقلته رشحًا لا يرقأ . ويقول :

وكنّا كغُصْنَىْ بانةٍ قد تألّفا ... على دَوْحَةٍ حتى استطالا وأينعا
يغنِّيهما صَدْحُ الحمامِ مُرَجِّعًا ... ويسقيهما كأسُ السحائب مُتْرَعا
سليمين من خَطْب الزمان إذا سَطَا ... خَلِيَّيْنِ من قول الحسودِ إذا سَعَى

ففارقنى من غير ذنبٍ جنيتُهُ وأبقى بقلبى حُرْقةً وتوجُّعا
عفا الله عنه ما جَناه فإننى حفظتُ له العهدَ القديمَ وضَيَّعَا

وهى قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبته كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان وُلدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغذيا معًا وتناولا الحياة تناولا واحدا ، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كئوس السحاب منتشين هانئين ، لا عذول ولا حسود . وفجأة تهجره صاحبته من غير ذنب جناه . ويصطلى قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع الهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبته جنايتها ، إذ ضيعت العهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكراً له بل حافظا أمينا . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنَّ أواهلاً وها هى من بعد الفراق طُلولُ
ويا ظَبْىُ هل بعد النِّفار تأنُّسٌ ويا بدرُ هل بعد الأفول قفولُ
ويامنزلَ الأحباب أين ترحَّلوا وهم فى فؤادى – ما حييتُ – نزولُ
يميلون عنى للوشاة وإننى إليهم وإن طال الصدود أميل
علىَّ لهم حفظُ الوداد وإنْ جَنَوْا وليس إلى نَقْض العهود سبيلُ

وقد فارقته صاحبته وأصبحت منازل قلبه طلولا دارسة ، وإنه ليتساءل متحسرا هل بعد النفور تألف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل منزل الحبيبة وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول فى قلبه لا يفارقونه أبدا ، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فسيظل متعلقا بهم حافظا لودادهم لا ينقض العهود ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه . وما يلبث أن يخاطب فى نفس القصيدة قمريا أوكما يسميه ابن ورقاء أى حمامة رمادية اللون قائلا :

وماهاجنى إلا ابنُ ورقاء سُحْرَةً له فوقَ أفنان الرياضِ هَدِيلُ
يُرَدِّدُ فى صُحُف الرياض قصائدا من الشوق يُمْليها لنا ويَميلُ
يُخيِّلُ أن البَيْنَ آذَى فؤادَهُ وكيف ولما يَنْأَ عنه خليلُ
ولم تحتكم فيه الليالى ولم يَبِنْ عليه لبَيْنٍ رِقَّةٌ ونحولُ
أما والهوى لو ذقتَ ما ذقتُ فى الهَوَى لما ازدان بالأطواق منك تَليلُ

ألا إنه مافارقَ الإلْفَ دَهْرَهُ ومالى إلى وَصْلِ الحبيب وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قمرى يتغنى سحرا بأشواق ماينى يرددها فى صحف الرياض ويمليها مخيِّلا كأنه يشكو من آلام بينٍ مبرِّح ولا بين ولا فراق ، فحبيبته بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها ضَنًى ونحول . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتباريحه مازدان تليله أوعنقه بطوق ، ويقول له إنه لم يفارق أليفتَه يوما بينما هو يتلظى بنار الفراق والهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله :

ورقُ الغصونِ دفاترٌ مشحونةٌ مملوءةٌ بـأدلَّة التوحيـدِ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائما مشوق يتمنى الوصل وأن تذوب حُجب الهجران . ومازال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبى نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة .

٢

شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر والحماسة الحربية غلب عليها قديما ، حتى سمى أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليبا لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزحمه من قديم شعر الهجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا فى الأعداء . وكانت معارك العرب – على مر السنين – بينهم وبين الأمم وقودًا مستمرًّا للفخر والهجاء ، فلم تخمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون فى تلك المعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفى بذكر شاعرين كبيرين قريبين من هذا العصر هما أبو تمام والبحترى ، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين ، فيها يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم فى آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من مَحْق لا يكاد يبقى منهم باقية . وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربى كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمها الشعراء لبيان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم

أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحترى وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فنجد – بعامل المنافسة – شاعرا يفاخر زميلا له ويهاجيه .

وكل ذلك نراه شائعا فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتدمة فى أوائله بين سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وبين الروم ، وكان يَكيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منذرين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبقى ولا تذر . وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالديين والسَّرِىِّ الرَّفاء . وشاعر الفخر الشامى الذى لا يبارى فى القرن الرابع الهجرى أبو فراس الحمدانى ، وسنخصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام فى القرن الخامس الهجرى قصيدة أبى العلاء المعرى التى أشرنا إليها فى ترجمته وفيها يقول[1] :

ألا فى سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلُ ... عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
تُعَدُّ ذنوبى عند قومٍ كثيرةً ... ولا ذنب لى إلا العُلا والفضائل
وقد سار ذكرى فى البلاد فمنْ لهم ... بإخفاء شمسٍ ضوءُها متكاملُ
وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُهُ ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل
ولى منطقٌ لم يرضَ لى كُنْهَ منزلى ... على أننى بين السِّماكين نازلُ
ولما رأيتُ الجهلَ فى الناس فاشياً ... تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنىَ جاهلُ
وواعجبًا كم يَدَّعى الفضلَ ناقصٌ ... ووا أسفًا كم يُظْهِر النَّقْصَ فاضلُ
ينافسُ يومى فىَّ أمسِى تشرُّفا ... وتحسُد أسحارى علىَّ الأصائلُ

والقصيدة تناقض شخصية أبى العلاء المتشائمة الزاهدة فى الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقيه فى فن الفخر ، وإما نظمها فى ساعة غضب ردا على بعض شانئيه وخصومه . ومع ذلك فهى تصور مكانته فى الأدب العربى ، وأنه فيه – بحق – السابق المجلِّى ، وهو يقول : من أين يلحقنى الذم وأنا أنهض بكل ما يكسبنى المجد والشرف من العفاف الظاهر

---

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية) ٥١٩/٢ .

والإقدام الجرىء والحزم النافذ والنائل أو الجود السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدَّت العلا والفضائل ذنوبا وعيوبا ، ولن تعد المحاسن كذلك أبدا . وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذى لا يستطيع أحد إخفاءه ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أتى بما لم يستطعه الأوائل ، ومع أنه بين السماكين فى السموات العلا لا يزال منطقه أو عقله يطلب منزلة أعلى شأنا . ولما رأى الجهل فاشيا تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسَّر على تظاهر الفاضل بالنقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمسه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ويمضى أبو العلاء فى القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفتخر بقومه وبلائهم فى حرب الثغور ضد الروم(١) :

أهلُ الثغور إذا تلمّ مُلِمَّةٌ ... بَسَطوا رِماحًا دونها وسَواعدا
وأولو التُّقَى فإذا مررت عليهمُ ... لم تلق إلا مكرِما ومجاهدا
إن حاربوا ملئوا البلاد مَصارعًا ... أو سالموا عَمَرُوا الديار مساجدا
بيتٌ له النسبُ الجلىّ وغيره ... دعوى تريد أدِلَّةً وشواهدا

وهو يفخر ببأس قومه وتقواهم وأنهم فى الحرب يملئون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين . وإذا أفضوا إلى السلم ملئوا الديار مساجد ، ويقول إن بيتهم عريق فى العرب لا يطاوله أى بيت . ومن شعراء الفخر فى زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرد له ترجمة — ولابن الساعاتى المار ذكره(٢) :

وإنى لآبى الضَّيْمَ من كل صاحبٍ ... وأكره قلبى أن يكون له خدْنا
وإن بلدٌ لم أغْدُ فيه مكرَّمًا ... نهضتُ فأعملتُ الجُدَيْلِيَّةَ البُدْنا(٣)
وما شان فَضْلى بين أهلى خمولُه ... وقد بلغتْ غاياتُه الإنْسَ والجنَّا
فإنى كعود الهنْد هِينَ بِدَوْحِهِ ... وقد عَبَّقت أنفاسُه السَّهْلَ والحَزْنَا

---

(١) ديوان ابن سنان الخفاجى ص ٢٣
(٢) ديوان ابن الساعاتى ٢/٢١٤
(٣) الجديلية البدن : النوق الضخمة

فهو يأبى الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحسَّ أن بلدا ينبو به رحَل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ فى بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فمثله مثل عود الهند لا يُعْرَفُ فضله فى دَوْحته ، بينما رائحته العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض .

ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجش المعتز بنفسه وكرامته طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزرى المار ذكره[١] :

يقدِّمنى عَزْمى وحَظِّى مؤخِّرى ... ويوصلنى حَزْمى ودهرى يقطِّعُ
وهمِّى من الدنيا المعالى ونَيْلُها ... وما همُّ قلبى الرَّقْمتان ولَعْلَعُ[٢]
ولا رَشَأٌ أحْوَى ولا صَوْتُ قَيْنَةٍ ... ولا قدَحٌ فيه الرَّحيق المُشَعْشَعُ[٣]
ولكنما لَدْنٌ وأجْرَدُ سابحٌ ... ومسرودةٌ زَغْفَا وأبيضُ يَسْطَعُ[٤]

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ فى الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدهر . وهمه طلب المعالى والظفر بها لا بمن يسكن روضتى الرقمتين وجبل لعلع من سمر الشفاه ، ولا بمن يتغنين غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه . إنما همه رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضئ فى غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالى لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بخمر ، إنما يشغف بالبأس فى الحرب وتقتيل الرجال وسفك دمائهم .

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يجزون الشعراء الجزاء الوفر وكثيرا ما كانت تحتدم بينهم المنافسات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء . وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخرية جارحة ، وقد يصبح دعابة وإن لم تخل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصورى وقد نزل ضيفا على أخ له[٥] :

وأخٍ مسَّه نزولى بِقَرْحٍ ... مثل ما مسَّنى من الجوع قَرْحُ
بِتُّ ضَيْفًا له كما حكم الدهـ ... ـرُ وفى حكمه على الحرِّ قُبْحُ

---

(١) ريحانة الالبا ١١٨/١
(٢) الرقمتان : قريتان فى شرقى نجد أو روضتان ويذكرهما شعراء الغزل . لعلع : جبل فى نجد
(٣) الرشأ : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوة : خمرة فى الشفة ، الرحيق المشعشع : العسل الممزوج
(٤) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة : درع . زغفا : سابغة . أبيض : سيف
(٥) البتيمة ٣٠٠/١

قَال لى إذ نزلتُ وهْو من السَّكـ ـرة والهمُّ طافحٌ ليس يصحو
لم تغرَّبْتَ قلت قال رسول الـ ـلّهِ والقولُ منه نُصْحٌ ونُجْحُ
سافروا تَغْنَمُوا فقال وقد قا ـل تمامُ الحديث صوموا تَصِحُّوا

وهى دعابة تلسع لَسْعَ الإبر ، فقد صور نزوله على مضيفه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من عَضِّ السلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه مسَّه من الجوع قَرْحٌ لا يزال يَنِزُّ ألما ، وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : (إن يَمْسَسْكم قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثله) أى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر . ويقول إن الدهر هو الذى حكم عليه هذا الحكم القبيح ، ولقد أصابته سكرة من الشح والهم ، فسأله سؤالا مزريا : لم تغربت ونزلت عندى ، فأجابه لقول رسول الله ﷺ : سافروا تغنموا ، فبادر إليه يقول : تمام الحديث : صوموا تصحّوا ، وكأنه يطلب إليه أن يظل جائعا بل أن يصوم ويظل صائما ما ظل عنده . ويقول الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ فى هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه[١] :

رأيتُ لؤما مصوَّرا جسَدًا شيمتُه الاحتيالُ والكذبُ
على سريرٍ كالنَّعْش لا رَهَبٌ يعلوه من هيبةٍ ولا رَغَبُ
يَجْبَهُ بالهُجْر مَنْ يخاطبهُ بين السَّعالى وبينه نَسَبُ[٢]
يَفْرَقُه الناسُ للسَّفاهة والـ ـعَقْرَبُ يُخْشَى وخَدُّه تَرِبُ
للجَمْع والمنعِ قائمٌ أبدًا كالفيل لا تَثْنِى له رُكَبُ

وهو هجاء لاذع كوى به جلد هذا الحاكم ، بل لقد تحولت الأبيات فى يد الغزى إلى ما يشبه سياطا بل شُواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للؤم والكذب ، يجلس لا على سرير بل على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب فى ماله ، لما عُرف عنه من شحٍّ بغيض ، وأنه يصكُّ مخاطبه بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إن بينه وبين الغيلان نسبا ذميما . والناس يخشونه لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالفيل قائما أبدا إذ لا ينام فعيناه مشدودتان دائما لجمع المال ومنعه عن مستحقيه شُحًّا بغيضا لا يدانيه شح . وكان العرقلة الكلبى المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم لا مالا ، بل شعيرا فقال[٣] :

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٩/١
(٢) السعالى : الغيلان
(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/١

يقولون لمْ أرخصتَ شِعْرَك فى الوَرَى فقلت لهم إذ ماتَ أهل المكارمِ
أُجازَى على الشعر الشعيرَ وإنَّه كثيرٌ إذا استخلصتهُ من بهائمِ

ومنذ زمن الغَزِّى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من ممدوحيهم ، بل إن منهم من يعطيهم رُقَعًا مسطرة دون أن يفى بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام . ومن كبار الهجائين فى أيام الأيوبيين بدر الدين عبد الرحمن بن المسجَّف المتوفى سنة ٦٣٥ للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول[١] :

يا ربِّ كيف بلوتنى بعصابةٍ ما فيهمُ فَضْلٌ ولا إفضالُ
متنافرى الأوصافِ يصدقُ فيهمُ الـ ـهاجى وتكذبُ فيهمُ الآمالُ
جُبَنًا إذا استنجدتهم لملمَّةٍ لُؤَمًا إذا استرفدتهم بُخَّالُ
هم فى الرَّخاء إذا ظفرتَ بنعمةٍ آلٌ وهمْ عند الشدائد آلُ

وهو يخلى عصابته من كل فضل ويراها جديرة بكل مذمَّة فى مهجوٍّ إذ تكذب فيها دائما الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جبناء عند الشدائد ، لؤماء بخلاء ، وهم فى الرخاء أهل أو آل كما يقول ، وفى الضراء سراب أو آل يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وولَّى السلطان الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون المذاهب الفقهية : المذهب المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى ولقَّب ممثلى هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكى بلقب شمس الدين ، فاتخذ الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكه الساخر من مثل قول بعضهم[٢] :

أهـلُ الشـآم استرابوا من كـثرة الحكَّـامِ
إذ هم جميعًـا شموسٌ وحسالُـهـم فى ظـلامِ

وكان شرب الحشيش المخدِّر عُرف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه ، وشدَّد الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء فى ذمه كقول الشاب الظريف[٣] :

---

(١) فوات الوفيات ٥٣٩/١ شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .
(٢) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧ وانظر ذيل الروضتين لأبى (٣) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧

ما للحشيشةِ فضلٌ عند آكلها ... لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رَشَدِهْ
صفراءُ فى وجهه خضراءُ فى فمِهِ ... حمراءُ فى عينهِ سوداءُ فى كَبِدهْ

وهو يقبِّحها غاية التقبيح بآثارها فى ماضغها من صفرة تعترى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد لا يزول فى كبده . ويقول مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة فى هجاء كحَّال[١] :

دَعُوا الشيخ من كحل العيون فكفُّه ... يسوقُ إلى الطَّرْفِ الصحيحِ الدواهيا
فكم ذهبتْ من ناظرٍ بسوادهِ ... وألقتْ بياضًا خلفها ومآقيا

فكحله يعمى الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبقى بها بَصيصا ولا غير بصيص . ولبعض شعراء دمشق فى هجاء القاضى شهاب الدين أحمد الباعونى الشافعى المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة[٢] :

قضاءُ الشام أنشدنى ... بدينى لا تبيعونى
صُفِعْتُ بكلِّ مصْفَعةٍ ... وبعدَ الكلِّ باعونى

وكأنه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية . وفى كلمة « باعونى » تورية واضحة فهو لا يقصد « باعونى » من البيع وإنما يقصد القاضى الباعونى .

ويظل الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بسهامه مَنْ لا يروقهم من الحكام ومن لا يسيغ عليهم نواله حتى أيام العثمانيين ، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبى المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة فى بخيل[٣] :

بخيلٌ لو بيومٍ منه جادتْ ... أنامِلُه لغالتْهُ النَّدامَهْ
ولو فى النار أُلقِىَ ألفَ عامٍ ... لما عُرِفتْ له يوما سلامَهْ
ولو صارتْ بِسُفْرته رغيفا ... ذُكاءُ لما بدتْ حتى القيامه

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل نادما أبدا . وما تُرجى له سلامة من النار بل سيظل خالدا فيها ، وإن مائدته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش المستديرة كالشمس :

---

(١) فوات الوفيات ١/٥٤٠
(٢) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٤
(٣) ريحانة الألبا ١/١٠٨

ولو أنه ألقى رغيفا عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوفا وخجلا أن يرى شبيهها على سفرته أو مائدته . وحريٌّ بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والهجاء .

أبو فراس [1] الحمدانى

هو الحارث بن سعيد بن حَمْدان الحمدانى التغلبى ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضى ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقترن برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهى كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلة وهو رمز حققته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو فى سنته الثالثة ، وعنيت به أمه ، وأحضرت له المعلمين فى صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمدانى أن اشترك مع الأم فى العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبو فراس الذى كفله وقام على تربيته فارسًا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المدربين يدرِّبونه على الفروسية ، ولبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت فروسيته ونجابته ، فنحه ضيعة بمنبج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب فى السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه فى حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالق يقودها بنفسه ويعود إلى منبج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفى ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوفا بصيد الحيوان إنما كان مشغوفا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومرَّ بنا فى حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعى الهوى ، وقد عرضنا لميميته الملقبة بالشافية التى دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حارًّا ، وتشيُّع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعة إمامية .

وظل يركب فى مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره لدقّ أعناق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب فى إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه فى حربه . وكان دائما يبلى بلاء حسنا فى تقتيلهم وتمزيقهم شر ممزق ، وفى يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منبج من الصيد مع

---

(١) انظر فى أبى فراس وشعره اليتيمة ٣٥/١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزبدة الحلب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والشذرات ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٩٢/٢ ومقدمة د . سامى الدهان لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة فى مكتبات العالمين العربى والغربى ووضع حواشيه ورتب فهارسه .

غلمانه وإذا بكتيبة من الروم بقيادة « تيودور » تباغته فيدافع إلى أن تثخنه الجراح ويصيبه سهم فى فخذه ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل المغوار ، ويَقْدُم به تيودور إلى خَرْشنة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويذوق ذل الإسار وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تزداد مع الأيام عتوًّا وصلابة . ويُكْبر الروم فى أبى فراس فروسيته وبطولته فينزلونه فى قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه ، فيظل بهما فى أسره .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبى فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا فى الإسراع بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريده فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا فى شِراك الروم . وفى سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفى شهر رجب ينزل أبوفراس مع ثلاثة آلاف أسير عربى بِخَرْشَنَةَ ، ويقْدُمُ سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . وتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وانهزامات متلاحقة . ويتوفَّى سيف الدولة فى السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبى المعالى ويلقاه مولاه قُرْغُوَيْه فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون فى ذلك حَتْفُه ، ويقال إنه سقط جريحا فى ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزيًا قائلا فى ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشباب أبو فِرا سٍ لم يمتَّع بالشباب

وطبيعى أن لا يكون المديح الموضوع الذى يستنفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن فى حاجة إلى التكسب بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذى يستغرق شعره : فخره بقبيلته تغلب وأمجادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمثاليته الخلقية الكريمة وبطولته . وتُعَدُّ روميّاته أو أشعاره فى أسر الروم القطعَ الأرجوانية فى ديوانه ، وفيها غزل ورثاء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كى يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراعهم قراعا لا يبقى منهم ولا يذر ، وبين قصائدها بائية يرد بها ردا عنيفا على الدمستق حين طعن فى العرب وبسالتهم الحربية ، وفيها أخذ يذكره باندحاراتهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه فى مَرْعش وجرح أبيه بها فى

وجهه وأسر ابن أخته فى اللُّقان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو فى رومياته يحنّ إلى ملاعب صباه وشبابه ويشتاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليلة وهى تسأل عنه الركبان حين أُسر قائلا على لسانها :

يامَنْ رآى لى بحصن خَرْشَنَةٍ أُسْدَ شَرًى فى القيود أَرْجُلُها

ويرد عليها مسرعًا

يـا أُمَّـتَا هـذه مواردُنا نَـعُـلُّـها تارة ونَـنْـهَـلـها[1]

فمواردهم الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تنال القيود الثقيلة من أقدامهم . ويقول فى قصيدة ثانية : لولا أمى العجوز ما خفت أسباب المنية ولا طلبت الفداء من ابن عمى أبدا . ويقول لها :

يـا أُمَّـتَـا لا تَـيْـأسى لله ألـطـافٌ خَـفِـيَّـهْ
أوصـيك بـالصبر الجميـ ـل فإنه خَيْرُ الوصيَّهْ

فهو واثق فى الله ثقة تامة ، وهو لا ييأس أبدا من فضله ورعايته ، مع عزة نفس لا تماثلها عزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى فى الأسر ونزولهم به فى خَرْشنة ، إذ سرعان ما أنشد :

إن زرتُ خَرْشنةً أسيرا فلقد حللتُ بها مُغيرا
ولئن لقيتُ الحزنَ فيـ ـكِ فقد لقيتُ بك السرورا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت المنازل والقصور وأتت عليها كأن لم تكن شيئا مذكورا . ونشعر كأنما تجسدت فى روح أبى فراس كل معانى القوة العاتية التى تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شمالىّ إسبانيا ، على الرغم من أسره وما كان يعانيه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن أن تقهر مهما نزل بها من كوارث وخطوب .

وربما كان أروع قصائد أبى فراس حينئذ قصيدته الرائية التى نظمها حين قال الروم إن

---

(١) نعلُّها : نشربها تباعا . ننهلها : نشربها ابتداء

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحبه .

أراكَ عَصِيَّ الدمعِ شيمتُك الصَّبْرُ   أما للهوى نَهْيٌ عليك ولا أَمْرُ
بلى ! أنا مشتاقٌ وعندىَ لوعةٌ   ولكنَّ مثلى لا يُذاع له سِرُّ
معلِّلتى بالوصل والموتُ دونه   إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القَطْرُ
تسائلُنى مَنْ أنت ؟ وهْىَ عليمةٌ   وهل بفتًى مثلى على حاله نُكْرُ
فقلتُ كما شاءتْ وشاء لها الهوى   قتيلُكِ قالت أيُّهم فهمُ كُثْرُ
وقالتْ لقد أَزْرَى بك الدهرُ بعدنا   فقلتُ معاذَ الله بل أنتِ والدَّهْرُ

وهو حوار وغزل فيهما فتوة وقوة ، فهو لا يبكى ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستعر فى قلبه من لوعة إزاء معللته بوصل لا يناله ، وكأنما تغيَّر كل ما فيه فلم تعرفه وتسأله من أنت ؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قتيلك ، فتسأله أيهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدهر ، يكنى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدهر . ويمضى فى حوارها قائلا لها : لا تنكرينى يا ابنة العم فإننى غير منكر فى معمعان المعارك وقيادة الكتائب المعوَّدة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبى نساءهم دون أن أهتك لهم سترا أو أكشف لهم ثوبا ، وما يلبث أن يصيح بكل فتوته :

أُسِرْتُ وما صَحْبى بعُزْلٍ لدى الوَغَى   ولا فرسى مُهْرٌ ولا رَبُّه غُمْرُ(١)
ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امرىءٍ   فليس له بَرٌّ يَقيه ولا بَحْرُ
يمنّونَ أنْ خَلَّوْا ثيابى وإنما   علىَّ ثيابٌ من دمائهمِ حُمْرُ
سيذكرنى قومى إذا جَدَّ جِدُّهم   وفى الليلة الظَّلْماءِ يُفْتَقد البَدْرُ
ونحن أُناسٌ لا توسط بيننا   لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القَبْرُ
تهونُ علينا فى المعالى نفوسُنا   ومن خطب الحسناء لم يُغْلِه المَهْرُ
أعزُّ بنى الدنيا وأعلى ذوى العلا   وأكرمُ مَنْ فوق الترابِ ولا فَخْرُ

يقول : أُسِرت وورائى صحبى يشهرون السيوف فى الحرب ولا يغمدونها أبدا ، إنهم فرسان

(١) غمر : قليل التجربة . عزل : لا يحملون سلاحا

أبطال ، وما أُسرتُ جبنا ولا كان فرسي مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذى لا مَعْدَى عنه ولا مفر منه فى بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم مَنُّوا عليه بتركه لابسا لأمته وعدته الحربية ، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعده استشعار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ طالما دقَّ نصال سيوفه فى أعناقهم وصدورهم . ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيذكرون فروسيته وبطولته وبلاءه فى الأعداء . وكأنما يضع قوانين الشباب العربى والأمة العربية ، إنها ترمى بنفسها فى أتون الحرب فإما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليبذلون أرواحهم فى نيل المعالى ، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر ولم يعده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لوكان روحه وقلبه . ويقول مَنْ مثلنا : نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا . والقصيدة تعويذة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهى جديرة بأن يضمَّها كل شاب عربى إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاته – وهو فى سجنه – إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تنوح ، فأنشد :

أقولُ وقد ناحتْ بقربى حمامةٌ ... أيا جارَتا هل تَشْعُرين بحالى
معاذَ الهوى ما ذُقْتِ طارقةَ النَّوى ... ولا خَطَرَتْ منك الهمومُ ببالِ[1]
أتحملُ محزونَ الفؤاد قوادمٌ ... على غُصُنٍ نائى المسافة عالى[2]
أياجارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا ... تعالَىْ أقاسمْكِ الهمومَ تعالى
أيضحك مأسورٌ وتبكى طليقةٌ ... ويسكت محزونٌ ويندبُ سالى
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مُقْلَةً ... ولكنَّ دمعى فى الحوادث غالى

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه ومسمع الشجونَ فى نفسه ، ويُعيدها من نوى وفراق كفراقه وغربة كغربته وهموم كهمومه . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينهما ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حريته وتبكى حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويخرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمرة ، غير أن دمعى فى الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا ، وإنه ليتجشَّم أثقالها ويتحملها فى قوة . وشعر أبى فراس وراء روملياته يكتظ بالفخر

(١) النوى : الفراق
(٢) القوادم : ريشات أربع كبار فى مقدم الجناح

والحماسة ، وله قصيدة رائية فى ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطرما بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم فى الإسلام وما شادوه من إماراتهم فى الموصل وحلب . وشعره – بحق – يُضْرم الحميَّة فى النفس العربية .

عَرْقلة [1]

هو حسان بن نمير الكلبى الدمشقى ، ولد سنة ٤٨٦ وحفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، فغدا بشعره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طُغْتِكين نصيب كبير من مديحه ، وخاصة آبق آخر حكامهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محببة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه فى تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل فى قلعة جعبر ومدينتى آمد وماردين . وزار مصر وبقى بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من المدائح ، ويذكر له فى إحدى مدائحه أنه شيعى قائلا :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سنَّة الإمام يَزيدِ

فهو ليس سنيًّا ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعى من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذى وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين فى مقدمة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم فى مجالس لهوهم وسمرهم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُحْضره مجالس أنسه . ووصفه العماد الأصبهانى حينئذ فقال : « لقيته بدمشق شيخا خليعا رَبْعَةً مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشرا للأمراء ، شاعرا مستطرَف الهجاء ، لم يزل خصِّيصًا بالأمراء السادة بنى أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نتفه ، وله فيه

---

(١) انظر فى عرقلة الدمشقى وشعره الخريدة (قسم الشام) ١/١٧٨ وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦/٦٤ والشذرات ٤/٢٢٠ وقد طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

مدائح ، ولديه منه منائح » . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ، وَوفَى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧ .

ويبدو أن عرقلة كان فى أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا . فغضب ، وأنشد ما مرَّ ذكره من قوله :

يقولون : لِمْ أرخصتَ شعرك فى الورَى فقلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ
أجازَى على الشِّعْر الشَّعيرَ وإنَّهُ كثيرٌ إذا استخلصتَه من بهائمِ

واشتهر فى زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد – كما أسلفنا – إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان يحاول فيه التندير إضحاكا لسامعه وجلبا لسروره ، كقوله فى مغن ضارب على العود لم يعجبه صوته ولا ضَرْبه وتلحينه :

عـلىٌّ صَوْتُه سَوْطٌ علينا لا على الفَرسِ
وجملةُ ضربه ضربٌ لمدَّرِعٍ ومُـتَّـرسِ
يقـول السامعون له رمـاه الله بالـخَرسِ
وخُذْ يا ربِّ مهجتَه إذا غنَّى : (خُذِى نَفَسى)

فهو لا يجعل صوته يصكُّ الأسماع فحسب ، بل يجعله يكويها كى السياط للخيل ، أما ضربه فكأنه ضرب حقيق يضرب به دروعا وتروسا لا ألحانًا تُشْجى السامعين وتطربهم ، مما يجعلهم يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يغنى ، وكان بالصدفة يغنى مقطوعة أولها : « خُذِى نفسى » . ويقول لبعض مهجويه :

لك وجهٌ كأنَّهُ الـ ـبَدْرُ لكنْ إذا كُسفْ
وقوامٌ كـأنَّـهُ الـ ـغُصْن لكنْ إذا انقصَفْ
وبنـانٌ كـأنـه الـ ـبحر لكنْ إذا نَشِف
وأبٌ أكذبُ الأنـا مِ ولكنْ إذا حَلَفْ

وهو فى الأبيات الثلاثة الأولى يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يمحوه بل أن يرده عليه هجاء وإقذاعا شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقطر بأى خير ،

أما أبوه فكذاب أشر . وكان بدمشق فى زمنه طبيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع ليلا فانشتر جَفْنُ إحدى عينيه ، وكان هذا الطبيب كثيرا ما يرثى من يموت فقال عرقلة متندرًا عليه :

لنا طبيبٌ شاعرٌ أَشْتَرٌ أراحنا من شخصه اللّهُ
ما عادَ فى صُبْحةٍ يومٍ فَتًى إلا وفى باقيه رثّاه

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكتب له قصيدة رثاء مساء . فهل وراء ذلك شؤم يتمنى الناس الخلاص منه . وكان يُقْذع أحيانا فى هجائه ، حتى فى الموت . ويقول فى رثاء بعض خصومه :

لقد حَسُنَتْ به اليومَ المراثى كما حَسُنَتْ به أمس الأهاجى
ولكنْ لجَّ فى شَتْمِ البرايا وكان القتلُ عاقبةَ اللَّجاجِ

وهى شماتة تدل على أنه كان عدوانى المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض المجان ، يقول فيه إن دنان الخمر وكئوسها وقيانها المغنيات يبكينه بكاء مرا .

أسامة[1] بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبى ، من أعلام بنى منقذ أصحاب قلعة شَيْزَر إلى الشمال من حَماة ومن علمائهم وفرسانهم . ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عنى بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا ، ولقى — وهو شاب — فى صيده أسدا فصرعه . ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فتبنَّى أسامة وأخذ يعدُّه للإمارة بعده . وكان اسم عماد الدين زنكى قد أخذ فى التألق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا فى حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شَيْزَر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعًا مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهم خاسئين . وبمقدار فرحه

(١) انظر فى أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/٤٠٠ ومعجم الأدباء ٥/١٨٨ والخريدة (قسم الشام) ١/٤٩٩ والنجوم الزاهرة : الجزءين الخامس والسادس فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبداية والنهاية لابن كثير ١٢/٣٣١ والسلوك للمقريزى ١/١٢٥ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٣/٢٧ ومرآة الجنان ٦/٤٢٨ وشذرات الذهب ٤/٢٧٩ وديوانه طبع بالقاهرة . وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته . وطبع له فى القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار .

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفى فى العام السابق لتلك المعركة . وصمم على المكث فى مسقط رأسه لحمايته غير أن عمّه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، فتفرقوا فى البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق ولقيه حاكمها معين الدين أُنر مدير دولة أولاد طُغْتِكين لقاء حسنا ، وظل الجو بينهما صافيا حتى سنة ٥٣٩ إذ اكفهرَّ الجو ولم يجد أسامة بُدًّا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمى حينئذ الحافظ (٥٣٤ – ٥٤٤ هـ) فأكرمه وأمر له بإقطاع سنىٍّ عاش به حياة رَغْدة .

وخلف الحافظ ابنه الظافر (٥٤٤ – ٥٤٩ هـ » واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلاَّر لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجى ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه . وتطورت الأمور فتولّى الفائز بن الظافر الخلافة وهو صبى يحبو فى الخامسة من عمره ، وكاتَب أهل القصر طلائع بن رُزِّيك الوالى بالصعيد ، فقدم فى جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرعت أخت الظافر ، فكتبت إلى حَملة الصليب بعسقلان – وكانوا قد استولوا عليها حديثا – تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فُقتل عباس ، وُردَّ نصر إلى القاهرة ، وفرَّ أسامة فى نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذى استولى عليها فى سنة قدومه سنة ٥٤٩ ، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب فى مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، وتجشمت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم فى نفس أسامة .

ونزلت بأسامة فى سنة ٥٥٢ فاجعة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شَيْزَر وأتت عليها ونزح عنها أهله وتشتتوا فى البلاد ، وتملكها نور الدين خشية عليها من حَملة الصليب ، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطانُنا زاهدٌ والناس قد زَهِدوا له فكلٌّ على الخيرات منكمشُ
أيامُه مثلُ شهر الصومِ طاهرةٌ من المعاصى وفيها الجوعُ والعطش

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوِّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، وأما

أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أُخذت قهرًا من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عربى رُدَّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين فى بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره لحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدّته موجدته – فى رأينا – من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفَا بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولبَّاه مبتهجا ، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له فى مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لبّى نداء ربه عن ستة وتسعين عاما .

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرد للجهاد بابا وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارسا شجاعا ، وشارك فى حرب حَملة الصليب منذ شبابه دفاعا عن مسقط رأسه ، وجَلّى فى معارك عماد الدين زنكى ضدهم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهرا سيفه فى وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماة إلى ... أن شِبْتُ فيها وخيرُ الخيل ما قَرَحا[1]
أخوضها كشهاب القذْفِ مبتسما ... طَلْقَ المحيَّا ووَجْهُ الموت قد كَلَحا[2]
بصارمٍ من رآه فى قَتامٍ وَغًى ... أفْرى به الهامَ ظن البرقَ قد لمحا[3]
فسَلْ كُماة الوَغَى عنى لتعلم كم ... كربٍ كشفتُ وكم ضيقٍ بِىَ انْفَسحا

فهو قد نازل كماة الحرب أو شجعانها منذ سنته الخامسة عشرة ، وظل ينازلهم حتى اشتعل رأسه شيبا لا يهن ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنها وتصبح قارحة مستتمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسمَ الثغر متهلل الوجه وقد كشر الموت عن أنيابه . وإن سَيْفَهُ ليلمع فى غبار الحرب – وهو يحطم به الرءوس حطما – كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم فى الحرب وكثرة ما انفسح له فيها من مضايق ومآزق . ومن قوله فى تنكيله بحملة الصليب فى غير موقعة :

---

(١) الكماة : الشجعان . قرح الفرس : بلغ الخامسة من عمره

(٢) طلق المحيا : مستبشر الوجه . كلح : عبس

(٣) قتام وغًى : غبار حرب . أفرى الهام : أشق الرءوس

كم قد أبدتُ بسيفى كلَّ مفتخرٍ حامى الحقيقة يومَ الجَحْفل اللَّجِبِ[1]
وكم تركتُ بنى الإفرنج فى رُعُبٍ فصرتُ أُدْعى لديهم جالبَ الرُّعُب
وكم جررت إليهم جَحْفلا لجِبًا بالسَّابِريَّة والماذِىِّ واليَلَبِ[2]

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا حمى أهله يوم النزال الطاحن . ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب فى قلوب حملة الصليب حتى سموه – جزعا – جالب الرعب ، وكم قاد إليهم جيوشا غفيرة شاكية السلاح تقتلهم وتسفك دماءهم . ويقول :

سَلْ بى كماةَ الوَغَى فى كلِّ معتَركٍ يضيقُ بالنفس فيه صَدْرُ ذى الباسِ
يُنَبِّئوك بأنى فى مضايقها ثبتٌ إذا الخوف هزَّ الشاهقَ الرَّاسى

فهو يجلّى فى المعارك حامية الوطيس التى تبلغ فيها الروح الحُلقوم ويرى الكماة فيها الموت نصب أعينهم ، فإنه حينئذ يشق الجماجم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يهز الخوف والفزع الجبال الرواسى من الكماة العُتاة .

ولأسامة قصيده نظمها على لسان نور الدين مفاخرا معددا لانتصارات البطل على حملة الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول :

أبَى اللّهُ إلا أن يكونَ لنا الأمرُ لتحيا بنا الدنيا ويفتخرَ العَصْرُ
جعلنا الجهادَ هَمَّنا واشتغالنا ولم يُلْهِنا عنه السماعُ ولا الخمْرُ
بنا أَيَّدَ الإسلامُ وازداد عِزَّةً وذلَّ لنا من بعد عِزَّته الكُفْرُ
بنا استرجع اللّهُ البلادَ وأمَّن الـ ـعبادَ فلا خوفٌ عليهم ولا قَهْرُ

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر فى دكِّ قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استُرجع كثير من بلاد الشام وأَمِنَ فيها الناس ، ووُضع المكس أو الضرائب عن التجار وانتعشت الحياة وازداد الإسلام عزة . ونور الدين – بدون ريب – هو الذى هيأ لصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمه لأظافرهم . ويقول أسامة حين أقعدته سنواته السبعون عن الاشتراك فى نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

(١) حامى الحقيقة . حامى الحمى . الجحفل اللجب : الجيش الكثيف كثير الضجيج

(٢) السابرية : الدرع المحكمة النسج . الماذى : السلاح . اليلب . الترس .

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلايَ والسبعون قد أوهنتْ ... قُواى عن سعيي إلى الحَرْبِ
وكنت إن ثُوِّبَ داعي الوَغَى ... لَبَّيْتُه بالطَّعْن والضَّرب[1]
أشقُّ بالسيف دُجَى نَقْعها ... شَقَّ الدياجي مُرْسَلُ الشُّهْبِ[2]
أنازلُ الأقْران يُرْدِيهُمُ ... من قبل ضربي هامَهم رُعْبِي[3]

فقد وهن عظمه وضعفت مُنَّته ، ولكن لاتزال روحه قوية ، وإنه ليذكر ماضي فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعي للحرب يبادر إليها يطعن ويضرب يمينا وشمالا يشق الرءوس فى مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعبهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن[4] عُنَيْن

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عُنَيْن ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل أجداده الأولون الكوفة ، وتركتها أسرته إلى زَرْع فى حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده الأقربين واستقر فى دمشق ، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان منزله جنوبى الجامع الأموى ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلف إلى شيوخه وفى مقدمتهم الحافظ أبوالقاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو فى السادسة عشرة من عمره . ولا نعرف الأسباب التى جعلته يتجه بشعره فى بواكير حياته إلى الهجاء ، ربما كان عدوانيا بطبعه ، وربما رجع ذلك إلى أنه نشأ فى أسرة متواضعة ، وأن أباه لم ينشِّه على حب الخير والشعور بالمروءة والكرامة والرغبة فى التسامى وطلب المعالى ، وقد صرَّح بذلك فى بعض شعره قائلا فيه :

وجنَّبنى أن أفعلَ الخيرَ والدٌ ... ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهلُ المناسبِ

---

(١) ثوب : دعا
(٢) النقع : غبار الحرب
(٣) يرديهم : يهلكهم
(٤) انظر فى ابن عنين وشعره ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣٨/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ٢٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٤٦١ ومفرج الكروب لابن واصل ٢٨٦/٢ والشذرات ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققه خليل مردم (نشر دار صادر ببيروت) .

بعيدٌ عن الحسنى قريبٌ من الخَنا وضيعُ مساعى الخير جَمُّ المعايبِ
إذا رمتُ أن أسمو صعودًا إلى العلا غدا عِرْقُه نحو الدَّنِيَّة جاذبى

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقامَ لضعة أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبى البطل المغوار الذى أذلَّ حملة الصليب ودفع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس المعظم منهم وغيره . هذا البطل الذى احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين فى العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزيره القاضى الفاضل وكاتبه عماد الدين الأصبهانى وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سلطانُنا أعرجٌ وكاتبُهُ ذو عَمشٍ والوزير مُنْحَدِبُ

وكان القاضى الفاضل أحدب وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول . وذاعت لابن عُنين فى دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض ، وضجَّ الناس من لسانه وبهتانه ، ورفعوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، فمضى على وجهه يجوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهندِ . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتِكين (٥٧٧ – ٥٩٣ هـ .) فوفد عليه ، وقدم إليه مدائحه فلقيه لقاء كريمًا وخفَّ على قلبه فاتخذه نديما ، وأخذ يكثر من مديحه وطغتكين يكثر من عطائه ، حتى أثرى ، وكثر فى يده المال ، فرأى أن يستثمره ، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر فى العقد التاسع من القرن السادس .

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفِّى صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها ، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التى يحملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت فى أيام نيابته عن أبيه أو فى أيام سلطنته ، وهو فيها يهجوه بالشحِّ بينما يمدح عمَّه العزيز طغتكين بالكرم ، يقول :

ما كلُّ مَنْ يتسمَّى بالعزيز لَهُ فَضْلٌ ولا كلُّ بَرْقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ[1]
بين العزيزين بَوْنٌ فى فعالهما هذاك يُعطى وهذا يأخذ الصَّدَقَهْ

(١) غدقة : غزيره المطر .

وهو هجاء لاذع للعزيز عثمان إذ يجعله – لشدة شحه – شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طغتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها ، يقول ابن خلكان : « اتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل فى ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش». وتوفى العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتولى بعده أخوه الأفضل وتطورت الظروف وتحول ملك صلاح الدين فى مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولّى على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى . وحنَّ ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له فى العودة ولزم ابنه المعظم عيسى (٥٩٧ – ٦٢٤ هـ) يمدحه ، وقرّبه منه واتخذه بأخرة من أيامه وزيرًا له ، حتى إذا توفى رثاه رثاء حارا . وأبق له منزلته ابنُه داود (٦٢٤ – ٦٢٦) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفى سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاما .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألحق محقق الديوان بتلك الأبواب مستدركا بما عثر عليه من شعر ابن عنين فى كتب التاريخ والأدب . وهو فى مقدمة شعراء دمشق بزمنه إن لم يكن سابقهم المجلىّ ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال فى الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفيه – كما مر بنا – عن دمشق ، وحتى من أكرموه كان يهجوهم غير مراع فيهم إلاًّ ولا ذمة ، إذ كان ما يلبث أن يعضَّ أيديهم التى امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذى فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها :

إن سُلْطاننا الذى نرتجيهِ واسعُ المال ضيِّقُ الإنفاقِ
هو سيفٌ كما يقالُ ولكنْ قاطعٌ للرسوم والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأنقذه من تشتته وضياعه فى البلاد وردَّه إلى دمشق حبيبة قلبه ومهوى فؤاده التى طالما تغنى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاه بالهجاء . وحقًّا له فيه مدائح رائعه ، ولكن كان ينبغى أن يرد شيطان هجائه عن الإلمام بساحته . وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراما إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها بن أبى اليسر التنوخى أمر الرعية :

أرى ابن عُنَيْنٍ والبَها مذ تولَّيا ... على الناس ولَّى الخَيْرُ عن كل مُسْلِمِ
فوالله ياعيسى بمن شِئْتَ منهما ... لُعِنْتَ ولوكنت المسيحَ بن مَرْيَمِ

وحقًّا هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يعفيه من قَسمه له بأنه لُعن لتوليته هو وصاحبه . وهجا نفسه فى ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الحطيئة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضا فإنه استعار منه – كما مرَّ بنا – هجاءه لأبيه . وأهداه طبيب عيون – أو كما كانوا يقولون كحال – خروفاً هزيلا جدا فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها :

أتانى خروفٌ ما شككتُ بأنَّه ... حليفُ هوًى قد شَفَّه الهَجْرُ والعَذْلُ
إذا قام فى شمس الظهيرةِ خلتَهُ ... خيالا سرى فى ظلمةٍ ماله ظِلُّ
فناشدتُه ما تشتهى قال قَتَّةٌ ... وقاسمتُه ما شفَّه قال لى الأكْلُ
وظلَّ يراعيها بِعَيْنٍ ضعيفةٍ ... وُينشدها والدمع فى الخدِّ منهلُّ
أتتْ وحياضُ الموت بينى وبينها ... وجادتْ بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

والبيت الأخير لأعرابى وضعه بدقة فى موضعه من القطعة ، وقد جعل الخروف الهزيل نِضْوَ عشقٍ شفه الهجر واللوم ، ويقول كأنه خيال فى ظلام ليس له ظل ، وهى صورة بديعة ويستحلفه ما يشتهى فيقول قتة أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعيها بعين ذابلة توشك أن تودع الحياة ودموعه منهلة على خدوده ، فقد أتته وهو يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه فروحه فى الحلقوم .

ويصور ابن عنين بخيلا شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجرا متبرما ، متمنيا أن لا تتكرر هذه الدعوة أبدا ، ومُدَّت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عنين حينئذ قائلا :

عهدى به واليَدُ اليمنى يَكُفُّ بها ... غَرْبَ المدامعِ والأخرى على الكبدِ
يقول للخبز : لا يبعد مَداك ولا ... أُخْنَى عليك الذى أخنى على لُبَدِ

ولبد آخر نسور لقمان فى قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يستر غرب دمعه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لخبزه أن لا يأتى الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجى رشيد الدين عبد الرحمن النابلسى ويزعم أنه صُفع وأنه معتاد الصفع دائما يقول :

تعجَّب قومٌ لصَفْعِ الرشيدِ ... وذلك مازال من دابِهِ
رحمتُ انكسارَ قلوبِ النِّعالِ ... وقد دنَّسوها بأثوابِهِ
فوالله ما صَفعوه بها ... ولكنهم صفعوها بِهِ

وله أهاج كثيرة فى القاضى الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل فى بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لا لفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان .

ابن[1] النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبى المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه فى البلدان الشامية والمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة فى صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بدَّل محاسنه وزهده فى الحياة . ونراه فى شعره يرثى تلك الأيام أسفا محزونًا ، ويقال إنه تزيَّى بزى الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أدباؤها وشعراؤها استقبالا كريما . وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون فى نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات . وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذى تحدثنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أدبائها أهلا ومكانا طيبا ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفى سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه المحبى فى كتابه : نفحة الريحانة : « أنا لا أجد عبارة تفى فى حقه بالمدح ، فأرسلت اليراع وما يأتى به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره فى آذان الزمان ، وساحرٍ إذا أُشربتْ كلماته العقول استغنت عن الكئوس والندمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين ، وشعره استنفده فى المديح ، ويكثر فى مقدماته من الغزل ، وقد يفزع إلى الفخر بمثل قوله :

---

(١) انظر فى ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٣/٢٥٧ ونفحة الريحانة ٢/٥٠٧ وديوان ابن النحاس مطبوع قديما فى بيروت بالمطبعة الأنسية .

ألا إن لى نفسَ الوَقورِ وعفَّةَ الـ ـقدير وقلبى فى المهمات قُلَّبُ
وما كلُّ مَغسول اللَّمَى يستفزُّنى ولا كلُّ مطلوبٍ لدىَّ محبَّبُ[1]
وأحتملُ المكروه ممن يملُّنى ولم آلُ جِيدَ الودِّ عمن ينكِّب
إذا أنا لم أدفع عن النفس ضَيْمَهَا فلا انجاب عنها من دُجَا الضَّيْم غَيْهَبُ
ولا وَطِئَتْ خَدَّ الفيافى ركائبى ولا سالَ حَزْنٌ بالمطىِّ وسَبْسَبُهْ

وهو يقول عن نفسه إنه وقور عفيف قُلَّب يحتال فى قوة للأمور ، ولا يستثيره جمال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمانى الكبار ، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه ، ولا ينصرف عمن يُعْرِض عنه من الأوِدَّاء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاه المظلم ، وأن تهن قواه فلا تطأ الفيافى ركائبه ولا يسيل بها حَزْن من الأرض ولا مفازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يادهرُ مثلى لا يُقَلْـ ـقَلُ عن سَنام المجد جَنْبُهْ
أنا لا أبالى إن رُمِيـ ـتُ وسبَّ عِرْضى مَنْ أسبُّهْ
العينُ يدميها الذُّبا بُ ويُعْجز الآسادَ ذَبُّه
والتِّبْرُ يعلوه التُّرَا بُ وفضلُه باقٍ ولُبُّه
تكفى فتَى العِرْفان خـ ـلاَّنا فضائلُه وكُتْبُهْ
وارقبْ خُفُوقى إن سكنـ ـتُ فعاصفى يُرْجَى مَهَبُّه
والبدرُ يشرق فى المطا لع بعد ما أخفاه غَرْبُهْ
والروضُ يَذْبل ثم تُكْـ ـسَى النَّوْرَ والأوراقَ قُضْبُهْ

وهو يقول للدهر إن شيئا لا يستطيع أن يزعزعه عن مكانه من سنام المجد ، وإنه ليرمى ، ولا يهمه ما قد يلقى عليه من أذى السب والشتم ، مثله فى ذلك مثل العين يدميها الذباب وحتى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله ومعارفه ، ويقول لخصمه : ترقَّب حركتى ، فإنى كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ، وما مثلى إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تعم أضواؤه الآفاق ، أو كمثل الروض تذبل

---

(١) اللمى : سمرة حسنة فى الشفة

أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبل الضيم كيف أقبلهُ ؟ والمجدُ يأباه فيَّ والحسَبُ
والشمسُ صَوْنًا لضوءِ طلعتها قبل لِحَاقِ الظلام تحتجبُ

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آبائه وعشيرته يستدير من حوله هالةً منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخى الليل سدوله على الآفاق .

٣

شعراء المراثى والشكوى

المراثى قديمة فى الشام منذ عصر بنى أمية فقلما كان يموت خليفة أموى إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثانى تشارك الشام بقوة فى الشعر العربى ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقى أن يحمل راية الشعر وزعامته لا فى الشام وحدها بل أيضا فى العالم العربى جميعه ، وتحتل المراثى بابا كبيرا فى ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحترى المنبجى الحلبى المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المراثى حيزا كبيرا فى شعره . ونلتقى فى أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات بكشاجم . وله رثاء فى أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيهما رثاء أبى فراس لأمه حين جاءه نعيها فى أسر الروم ، فأحس فى عمق بفجيعته فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة . وله مرثية بديعة فى أخت له يقول فيها[1] :

أتزعم أنك خِدْنُ الوفاءِ وقد حَجبَ التُّرْبُ من قد حجبْ
فإن كنت تصدقُ فيما تقولُ فمُتْ قبل موتك مَعْ من تُحِبْ
وكنتُ أقيلكِ إلى أنْ رمتْكِ يَدُ الدَّهر من حيث لا أحتسبْ
فلا سلمت مقلةٌ لم تَسُحَّ ولا بقيتْ لِمَّةٌ لم تَشِبْ
ولو رُدَّ بالرُّزْءِ ما تستحقُّ لما كان لى فى حياتى أربْ

---

(١) الديوان ٢/٤١

وهو يتمنى لو غُيِّب الترابَ مع شقيقته وصِنْو روحه حبا لها ووفاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التى أصابتها فى الصميم تحت بصره ، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهمرة ويتمنى أن لا يتوقف انهمارها ، لعلها تشفى غُلَّة نفسه وحُرْقة فؤاده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له فى حياته أرب ولقدَّم روحه فداء لها .

ولأبى العلاء مرثية رائعة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو فى طريقه إليها من العراق ، ويقول فى مطلعها إنه سمع بداهية أصمَّت أذنه وصكَّت سمعه ، ويأسى أن تتقدمه إلى الموت ، ويُعْظم أن يرثيها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجذ أضراسه فضلا عن مقادم أسنانه ، وينشد[1] :

ومَنْ لى أن أصوغ الشُّهْبَ شِعْرًا ... فأُلْبِسَ قَبْرَها سِمْطَىْ نظامِ
مضتْ وقد اكتهلتُ وخلتُ أنى ... رضيعٌ ما بلغتُ مدى الفِطامِ
فيا ركبَ المَنُون أما رسولٌ ... يبلِّغ روحَها أرَجَ السَّلام
ذكيًّا يُصْحَبُ الكافورُ مِنْه ... بمثل المِسْك مفضوضَ الختام

وهو يكبرها عن أن يرثيها بألفاظ ، إذ هى جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزين جَدَثها الطاهر ، ويحس فى عمق – وهو فى سن الكهولة – كأن السنوات الطويلة التى فصلته عن صدر أمه من القِصَرِ ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال يشعر كأنه رضيع فقد أمه ، وهو فى حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أى ضياع . ويتوسل إلى قوافل المنون التى تسرى فى ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا ينتشر أريجه من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمشقى المتوفى سنة ٤٥٢ فى مرثية له[2] :

برغمى أن أعنِّف فيك دَهْرًا ... قليلا فكرُه بمعنِّفيهِ
وأن أرْعى النجومَ ولستَ فيها ... وأن أطَأَ التُّرابَ وأنت فيهِ

ويقول الباخرزى تعليقا على البيتين : « هذا أرقُّ ما يكون فى المراثى ، إذ يكاد يفجِّر عيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأنهار ، بل بأمواج البحار » .

وتنشب الحروب الصليبية ، وفى بعض حملات آبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

---

(١) سقط الزند ١٤٥٩/٤ (٢) دمية القصر ١٥٨/١

يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قُول بن عثمان ، فيقتله الصليبيون ، ويبكيه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله[١] :

يالَلرِّجالِ لنازلٍ لم يُحْتَسَبْ ... ولحادثٍ ماكان بالمتوقَّعِ
تالله ما جارَ الزمان ولا اعتدى ... بأشدَّ من هذا المصابِ وأوجعِ
ياقُولُ قَوْلَةَ مُكْمَدٍ مُسْتَنْزِرٍ ... ماءَ الشئون له ونارَ الأضْلُعِ
أشكو إلى الأيام فيك رَزِيَّتِي ... لو تسمع الأيامُ شكوى موجَعِ
صُلْ بَعْدَها يادهرُ أو فاكْفُفْ وخُذْ ... مَنْ شئتَ ياصَرْفَ المنية أودَعِ

وهى مرثية رائعة تمتلىء بأبيات تصور لوعات الدمشقيين فى هذا البطل وكارثتهم وفجيعتهم التى لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقلُّ الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة فى الصدور كمدًا عليه ، وليُنْزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أو فليكفّ ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة .

وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٧٠ فاهتزت الشام لفقده هزة شدة ، وفى رثائه يقول العماد الأصبهانى فى إحدى مراثيه[٢] :

ياملكًا أيّامُه لم تَزَلْ ... لفضلِهِ فاضلةٌ فاخرَه
غاصتْ بحارُ الجود مذ غُيِّبَتْ ... أنْمُلُكَ الفائضةُ الزاخره
ملكتَ دنياك وخلَّفْتَها ... وسرتَ حتى تملك الآخرهْ

وتوفى بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ رنة حزن عميقة فى جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته ، وقد أزاح الصليبيين عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفى مقدمتهم عماد الدين الأصبهانى ، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامى ، وفيها يقول[٣] :

أين الذى شَرُفَ الزمانُ بفضلهِ ... وسَمتْ على الفضلاء تشريفاتُهُ

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٣ والخريدة بداية شعراء الشام ص ٢٠٩ .

(٢) الروضتين لأبى شامة (طبع مطبعة وادى النيل بالقاهرة) ٢٢٨/١ .

(٣) انظر نهاية كتاب البرق الشامى للعماد والروضتين ٢١٥/٢ والنجوم الزاهرة ٦٠/٦

لا تحسبوهُ ماتَ شخصا واحدا قد عمَّ كلَّ العالمين مماتُه
لو كان فى عصر النبىِّ لأُنزلتْ فى ذِكْرِه من ذكره آياتُهُ
باراعياً للدين حين تمكنتْ منه الذئابُ وأسلمتْه رُعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائمًا رِضْوانُ رَبِّ العرشِ بل صلواتُهُ

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها فى حديثنا عن السياسة بالشام ومصر ، حماية جعلته فى الذروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عمَّره من المدارس والمساجد فى كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليها من أموال ، ومع دولته الواسعة لم يخلِّف ملكا ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولةً أَحْنَى لها حَمَلةُ الصليب رءوسهم .

ولا يكاد يتوفَّى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاض إلا ويرثيه الشعراء ، من ذلك قول الشهاب محمود فى ابن صَصْرَى قاضى دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة[١] :

قاضى القضاة ومَنْ حَوَى رُتَبًا سَمَتْ عن أن تُسَام سَنًا وَبَزَّتْ مَنْ سَعَى
شيخُ الشيوخ العارفين ومَنْ رَقَى رُتَبَ السلوكِ تعبُّدا وتورُّعا
حاوى العلومِ بما تفرَّق فى الورَى إلا الذى منها إليه تجمَّعا

وطبيعى أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقه بها فقها دقيقا . ويقولون إنه كان يجمع بين الحسنيين : المعرفة بالمنقول والبراعة فى المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسنى الحلبى المتوفى سنة ١٠٥٦ فى رثاء أخيه[٢] :

رُزْءٌ ألـمَّ وحسرةٌ تَتوالى ومصيبةٌ قد جَذَّتِ الآمالا
وفراقُ إلفٍ إن أردتُ تصَبُّرًا عنه أردتُ من الزمان محالا
كنا كغُصْنَىْ دَوْحَةٍ قطع الرَّدَى منها الأغضَّ الأرْطَبَ المَيَّالا
أو كاليدين لذاتِ شَخْصٍ واحدٍ كان اليمينَ لها وكنتُ شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والممدوحين والناس مشدودا فى أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٢٢/٩ (٢) نفحة الريحانة للمحبى ٥٣٩/٢

يلحّنون عليه نوائب الدهر وتغافل الممدوحين وبؤس حظوظهم في دنياهم وما يتجرّعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير ، وما يبلون في الناس من الطمع والحقد والأنانية مما يوهي العلاقات حتى بين الأقرباء ، ويملأ النفوس شقاء وعناء والقلوب حسرات ولوعات ، من ذلك قول أبي فراس [١] :

أراني وقومي فَرَّقتْنا مذاهبُ   وإن جَمَعَتْنا في الأصول المَناسِبُ
فأقصاهمُ أقصاهمُ من مَساءتي   وأقربُهم مما كرهتُ الأقاربُ
غريبٌ وأهلي حيثما كرَّ ناظري   وحيدٌ وحولي من رجالي عصائبُ
وأعظمُ أعداءِ الرجالِ ثِقاتُها   وأهونُ من عاديته مَنْ تحاربُ

وهو يصور المحنة في الناس حوله ، فهم جميعا قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ، وأقربهم منه لا يحبون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يجعله يشعر في عمق بالغربة بين أهله وذويه وعصاباته ، ويهوله ذلك ويقلقه ويفزعه . وإنه ليوغل في فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقا ، بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثقتك ، وهو لا يريد لك خيرا بل يريد لك الشر والأذى ، وهو لذلك أعْدى أعدائك ، أما العدو الحقيقي فأنت تعالنه العداوة وتجاهره بالحرب والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائما متق شره وخيانته وغدره . ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله [٢] :

يادَهْرُ يامنجزَ إيعادِهِ   ومخلفَ المأمولِ من وَعْدِهِ
أيُّ جديدٍ لك لم تُبْلِهِ   وأيُّ أقرانك لم تُرْدِهِ
تستأثر العِقْبان في جوِّها   وتُنْزِل الأعصمَ من فِنْدِهِ [٣]
إن زماني برَزاياه لي   صيَّرني أَمْرَحُ في قِدِّهِ [٤]
أفضلُ ما في النفس يَغْتالها   فنَسْتعيذ اللهَ من جُنْدِهِ
وربَّ ظمآنَ إلى موردٍ   والموتُ لو يعلم في وِرْدِه

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائما الإيعاد والإنذار بالشرور والخطوب ، ويُخْلف دائما

---

(١) ديوان أبي فراس ٢/٢٠
(٢) سقط الزند ١٠١٢/٢
(٣) الأعصم : الوعل . الفند : قمة الجبل
(٤) القد : مايُقَدُّ من الجلد ويُشَدّ به الأسير

الوعد بالخيرات والطيبات ، وإنه ليأتى دائما على كل جديد وكل قِرْن يدَّعى أنه يماثله فى القوة أو الشجاعة ، فالكل أَسْراه : العِقْبان فى أجوائها العليا والعُصْم أو الوعول فى أعالى الجبال ، فلا أحد ينجو من صولته . ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قِدًّا أو قيدًا له ولحياته ، وصار من طول ألفته لها يستحبها ويمرح فيها . ويعجب أن يكون أفضل ما فى النفس من حواس البصر والسمع وغيرهما يغتاله أو يهلكه ما سُلِّط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تنتقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعيذ من شرها ، ويقول رب ظامئ إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكه . ويقول أسامة بن منقذ(١) :

حذَّرَتْنى تجاربى صُحْبَةَ العا ... لَمِ حتى كرهتُ صحبةَ ظِلِّى
ليس فيهم خِلٌّ إذا ناب خَطْبٌ ... قلتُ مالى لدفعه غيرُ خِلِّى
كلُّهم يبذلُ الودادَ لدى اليُسْـ ... ـرِ ولكنهم عِدًى للمقلِّ
فاعْتَزِلْهُمْ فَفِى انفرادِك منهم ... راحةُ اليأسِ من حِذارٍ وذُلٍّ

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يمقتهم ويمقت كل ما فى العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفا أن يكون فيه ما فى الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة . ويقول إنه ليس فى الناس خل صادق العهد فى النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعدك ، إنما يعرفك فى اليُسْر ، أما فى العسر فلا يودّك ولا يعرف لك طَوْلا ولا فضلا ولا يسدُّ لك ثلمة ولا يقدم لك عونا ، فاعتزل الناس وايْأَسْ من أن يردّوا لك معروفا أو جميلا تَعِشْ آمنا عزيزًا .

ويقول ابن عُنَين فى التَشوق إلى دمشق بعد أن ظل منفيا عنها طويلا شاكيا محزونا لغربته وما لقى فيها من ضنك العيش بعد أن طوَّف فى العراق وإيران وخراسان والهند واليمن(٢) :

فسَقَى دمشقَ ووَادِيَيْها والحِمَى ... متواصلُ الإرعادِ مُنْفصمُ العُرَى
فارقتُها لا عن رِضًى وهجرتُها ... لا عن قِلًى ورحلتُ لا متخيِّرا
أسْعَى لرزقٍ فى البلاد مشتَّتٍ ... ومن العجائب أن يكون مقتَّرا
لا عيشتى تَصْفُو ولا رَسْمُ الهوى ... يَعْفُو ولا جَفْنِى يصافحُه الكرَى

فهو يدعو لدمشق — وكان يكثر من الحنين إليها — أن يسقيها سحاب متواصل الإرعاد

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٢٥/١

(٢) ديوان ابن عنين ص ٤

أو الإمطار ، منفصم العُرَى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقها قسرا ، وهو إنما فارقها لهجوه أهلها وإفحاشه فى هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسدُّ رمقه ، فرزقه دائما مقتَّر أو قليل ، وعيشته دائما نكدة ، وهواه معلق دائما بدمشق ودائما مسهَّد لا يلم بجفونه الكرى أو النوم لما ملكتْ عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما ينزلون القاهرة فى عهد الأيوبيين والمماليك ويحنّون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل بمناظر وطنهم ومشاهده الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حِجَّة الحموى صاحب خزانة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد وولى عدة وظائف لعهده ، ويقول متشوقا إلى بلدته حَماة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله(١) :

ياساكنى مَغْنَى حَماةَ وحقِّكم	من بعدكم ماذقتُ عيشًا طيِّبا
أرضٌ رَضعتُ بها نُدِىَّ شبيبتى	ومزجت لذَّاتى بكاسات الصِّبا
وقد التفتُّ إليك يادهرى بطو	ل تعتبى وبحقّ لى أن أعْتبا
قَرَّرْتَ لى طولَ الشتات وظيفةً	وجعلتَ دمعى فى الخدود مرتَّبا

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه فى حماة مسقط رأسه ، ويعاتب الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول تشتته بعيدا عن قرة عينه ، وإنه ليبكيها بدموع غزار . ولذلك عاد إلى حماة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، ومرت بنا ترجمة لحسين بن الجزرى أيام العثمانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا(٢) :

قد صرتُ أحْتَرِز الأنامَ وغَدْرَهم	إن الطبيبَ يخاف مسَّ الدَّاءِ
وقطعتُ باليأس الرجاءَ لديهمُ	واليأسُ يَجْدَعُ أنفَ كلِّ رجاءِ
ولطالما أصفيت قبلك خُلَّتى	من لا أراه موافقا لإخائى
وبلوت منه ودَّه فرأيتُه	متلوِّنا كتلوُّن الحِرْباء

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فيئس

(١) خزانة الأدب ص ٤٠

(٢) ريحانة الألبا ١٢٤/١

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاء ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت تجربته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجع شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلوّن ألوانا كألوان الحِرْباء ، إذ تتلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فاتخذ منها مثلا لتلونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرثاء .

ابن سنان [1] الخفاجى

هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى تلميذ أبى العلاء المعرى ، وكان يتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولانعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمعان السياسة إذ نراه فى حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هذا كتابى عن كمال سلامةٍ عندى وحالو شرْحُها فى الجملةِ
همٌّ وإقتارٌ وعمرٌ ذاهبٌ وفراقُ أوطانٍ وبُعْدُ أحبَّةِ

وعاد إلى حلب فى عهد أميرها ثمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته حلبيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه « عَزاز » فقال : لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوّب الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعةَ عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولايحضر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره . ومع ذلك اضطر - بأمر محمود - أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحسَّ بالموت أنشد .

خَفْ مَنْ أمنتَ ولاتركنْ إلى أحدٍ فما نصحتُك إلا بعدَ تجريبِ

(١) انظر فى ابن سنان الخفاجى وشعره زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزءين الأول والثانى (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ٤٨٩/١ والنجوم الزاهرة ٩٦/٥ وكتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ . وديوانه مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت .

وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتتحه بمرثية فى الكاتب على بن محمد بن عيسى العمرى ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر فى حصاره لحلب فقتله وصلبه ، وفى رثاء ابن سنان له يقول :

ومعذَّلٍ جارٍ على غُلَوائهِ ... يُرْوَى حديثُ نَداه عن أعدائهِ
عَجِلَتْ عليه يَدُ الحِمام وعودُه ... رَيَّانُ من خَمْرِ الشباب ومائه
عجبًا لحدِّ السيف كيف أصابه ... ومَضاؤه فى الرَّوْع دون مَضائه
ولمصعبٍ ملأ الزمانَ هديرُه ... قادوه بعد شِماسه وإبائهِ
إن يرفعوه فقد غنَوْا بعَلائه ... أو يَشْهَرُوه فقد كُفُوا بثنائهِ

وابن سنان يؤبِّن صديقه تأبينا حزينا قائلا : إنه كان بحرا فياضا فى الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذى شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نضرا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه فى الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القياد يهدر هدير الفحول ويزأر زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفعوه فى الصلب ، فقد أغناهم علاؤه فى السماكين ، وإن كانوا قد شهَّروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرثى جماعة من أهله وأصدقائه :

أيُّها الظاعنون لازال للغيـ ... ـثِ رواحٌ عليكمُ وبكورُ
لستُ أرضى باللمع فيكم فهل يَمـ ... ـلك رِيَّ البحور إلا البحورُ
قد رأينا دياركم وعليها ... أثرٌ من عُفاتكم مهجورُ
عَـرَصـاتٌ كـأنهن لـيـالٍ ... فارقتْها عند الكمال البدورُ
بانَ ذُلُّ الأسى عليها فللغيـ ... ـثِ بـكاءٌ وللنسيم زَفير
يانجومَ العُلا غَرَبْتُم وما فى اللَّـ ... ـيلِ من بعدكم نجومٌ تَغُورُ

وهو يدعو لأجداثهم أن تظل تمطرها السحب فى البكور والرواح بل حريٌّ أن تُرْوِى البحور مَنْ فيها من بحور الكرم . ويقول إنه مرَّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هُجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصاتها وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسى والحزن عليها

والسحب تبكى بدمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها فى الليل نجوم تغور فى سماء المجد والعلاء . وقال يرثى والدته حين توفيت بعد قدومها من حَجِّ بيت الله :

أبكيك لو نهضتْ بحقِّك أدمعُ ... وأقول لو أن النوائبَ تسمعُ
لا يُغْبَطَنَّ على البقاء مرزَّأٌ ... إن المودِّع إلــفَــه لمودَّعُ
قُبْحًا ليومكِ فالنوائبُ بعده ... جَلَلٌ وكلُّ رزيَّةٍ لاتفْجَعُ[1]
لو كان ينفعنى السلوُّ نبذتُه ... أسفًا عليكِ فكيف إذ لاينفع
عجبًا لمن يُبْقِى ذخائرَ مالهِ ... ويظلُّ يحفظهن وهْو مضيَّع
ولغافلٍ ويرى بكلِّ ثَنِيَّةٍ ... مُلْقًى له بَطْنَ الصفائحِ مضجعُ[2]
ياقبرُ فيك الصالحاتُ دفينةً ... أفما تضيقُ بهنَّ أو تتصدَّع

وهو يقول إن أى دموع له لاتنى بحقوق أمه عليه وأى أنين له لاتسمعه النوائب ، ويقول إن أحدا لايُغْبَطُ على بقائه ، فما تلبث رحى الموت أن تطحن الباقين المودعين . وما أقبح اليوم الذى سمع فيه رزء أمه . فالنوائب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه ، ولو ينفعه السلو لسلا ، ولكنه لاينفع أى نفع . ويعجب لمن يجمع المال وعما قليل يضيع ، وللغافل عن الموت وفى كل عطفة بطريق من طرقه مضجع معدٌّ له : حفرة وصفائحها من الحجارة . ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لايتصدع وفيه هذه الأم الكريمة . وفى ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة .

الغَزِّىّ [3]

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبى الغزىّ ، ولد بغزَّة فى فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها فى المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح ورثى غير مدرس ، ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بهما جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول العماد الأصبهانى فى الخريدة : جاب البلاد وتغرَّب ، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل فى أقطار كرمان بفارس وأقطار

---

(١) جلل : يأتى بمعنى عظيم وبمعنى صغير حقير فاللفظة من ألفاظ الأضداد .

(٢) الثنية : الطريق والعطفة فيه . الصفائح جمع صفيحة وهى العريض من الحجارة والألواح .

(٣) انظر فى الغزى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٣/١ وما بعدها وابن خلكان ٥٧/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٥/٥

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرْمان ، وعماد الدين طاهر قاضى القضاة بشيراز . ثم أوغل شرقا متنقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفى سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثمانه إلى بلخ ودُفن بها عن ثلاثة وثمانين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره فى المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل ، ويبثُّ فى أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغربته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الاجواد المؤمَّلين قلوا فى البلاد ، وفى ذلك يقول :

قالوا هجرتَ الشعرَ؟ قلت ضرورةٌ　　بابُ الدواعى والبواعثِ مُغْلَقُ
خَلَتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرْتَجَى　　منه النَّوالُ ولا مليحٌ يُعشَقُ
ومن العجائب أنه لايُشْتَرَى　　ويُخانُ فيه - مع الكساد - ويُسْرَقُ

وهو لايشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية فى النقد العربى باب واسع . ويقول العماد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن المغزى ومايعزُّ من المعانى الغُرِّ معنى إلا إليه يُعْزَى ، يُعْنَى بالمعنى ويحكم منه المبنى ، ويودعه اللفظ إيداع الدرِّ الصدفَ ، والبدر السُّدَف » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إنى لأشكو خطوبًا لا أعيِّنها　　ليبرأ الناسُ من لومى ومن عَذَلى
كالشَّمع يبكى ولايَدْرَى أعَبْرَتُهُ　　من صحبة النار أم من فُرْقة العسَلِ

فخطو به كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب ، فمثله كالشمع لايُعْرَف هل يبكى من فرقة الرَّحيق أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطيقُهُ　　كما حمل العظمُ الكسيرُ العصائبا
وليلٍ رجونا أن يَدِبَّ عِذارُه　　فما اختطَّ حتى صار بالفجر شائبا
فلا تحمدِ الأيامَ فيما تُفيدُهُ　　فما كان منها كاسيًا كان سالبا

والصور فى الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه مايكون بعظم كسير شُدَّت عليه العصائب وهو يتضوَّر ألما ، ويصور قصر الليل فما اختطَّ عِذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لاتحمد الأيام فيما تحمله إليك من نفع فإنها تنفث فيه سموما ، وكل ماتظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تَعْرَى حرمانا وابتئاسا . ويقول :

الحظُّ من جَوْهَرِ الأشياء سَلْهُ ولا ... تسألْ من الله قَدًّا زَانَه الهَيَفُ
فالقَوْمُ فى قَبْضة الرامى لعزَّتها ... والسهمُ من هُونه يُرْمَى به الهدفُ
لم يُبْق لى زمنى شيئا أُسَرُّ بهِ ... فالحمدُ لله لافوزٌ ولا أسَفُ
عَرَّى أكابَره من ثوب مَحْمدةٍ ... فالقومُ فى السابغاتِ اللُّبَّسُ الكُشُفُ
لم يقنعوا بحجاب البُخْل فاحتجبوا ... كما غلا بعد سوء الكِيلةِ الحشَفُ
وإن جَرَى غلطٌ منهم بمكرمةٍ ... فَبَيْضَةُ العُقْر لا يُرْجَى لها خَلَفُ
أعجبْ بهم قطُّ فى الآراء ما اتفقوا ... على صوابٍ وفى التقصير ما اختلفوا

فهو يشكو حظَّه التعس وأن الإنسان حرى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالحظ مدار الحياة وقطبها ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وماأشبه الغرِّى بقوس عزيز فى قبضة الرامى تصوَّب منه السهام الهينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتعس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل مايدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شىء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عرَّى أكابره من ثياب المحامد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمدة ، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجبوا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حَشفه أو أردئه وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشىء كان ذلك بيضة العُقْر التى لاتبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لايتفقون فى الرأى على شىء سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفَّ الناسُ حتى لو بكينا ... تعذَّر ما تُبَلُّ به الجُفونُ
فما يَنْدَى لممدوحٍ بنانٌ ... ولايَنْدَى لمهجوٍّ جَبِينُ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلّ جفونهم ، إذ لم يعد هناك ممدوح يندى بَنانه ، ويغدق على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجو بخيل يندى جبينه خجلا وكسوفا . ويقول :

حبلُ المنى مثلُ حبلِ الشمس متصلا ... يُرَى وإن كان عند اللَّمْسِ مَبْتوتا

فلا تَقُلْ ليت صَرْفَ الدهر ساعدنى فإنَّ فى ليت أوْمًا يقطع اللِّيتا[١]

والصورة فى البيت الأول بديعة ، فحبل المنى كحبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتنى فإن فى ليت أوما أو عطشا شديدا دون ريه انبتات الليت أو صفحة العنق . فدع المنى والتمنى فإنهما يتعبان ولا يثمران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس فى شعر الغزى مدائح وغزليات – كما قلنا – رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه فى نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة فى مكتبات العالم .

فتيان [٢] الشاغورى

هو فتيان بن على الأسدى الشاغورى وُلد فى أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صبيا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حينئذ وهي الآن من أحيائها ، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أتم حفظه أكبَّ – مثل لِداته – على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية فى الجامع الأموى ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر فى أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويدربهم عليها . واختار قرية الزَّبدانى بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كتَّابا يعلم فيه الناشئة ، وله فى هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين فى أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم بجيشه المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته فى مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ ، واتخذ الأفضلُ مودودَ بن المبارك – وهو أخو عز الدين فـرُّخشاه ابن عم الأفضل لأمه – شحنة دمشق أو بعبارة أخـرى ضابـطا لشئونها ومصـرفًا لهـا . ويلتحق فتيان بخدمة مودود . ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بـالجامـع الأموى ، ونـظن ظنا أنـه ابتدأها فى أثناء تلك الخدمة أى منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

---

(١) أوما : عطشا شديدا . اللِّيت : صفحة العنق .

(٢) انظر فى فتيان الشاغورى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٦ ومطالع البدور للغزولى ٢٨/١ والشذرات ٦٣/٣ . وديوانه طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق أحمد الجندى وتقديمه .

وكان فتيان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكاتبه عماد الدين الأصبهانى والأفضل نور الدين وأخاه غازى صاحب حلب منذ أعطاها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه – فيما عهد – بتعليم أولاده الخط والعربية . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصرى صفى الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة مدحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبى فى مقدمتهم صاحب حَماة تقى الدين عمر (٥٧٤ – ٥٨٧هـ) أعطاها له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بعلبك فَرُّوخشاه (٥٧٥ – ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨ – ٦٢٧ هـ) . وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه . وطبيعى – وهو شاعر مدح كبير – أن تكون له مراثى لمن لبى نداء ربه من ممدوحيه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلمائه الأعلام . ومن أروع مراثيه مرثيته لشيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهانى إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفاته ، وفيها يقول :

أىُّ ركنٍ وَهَى من العلماء ... أىُّ نجمٍ هَوَى من العلياء
إنَّ رُزْءَ الإسلامِ بالحافظ العَا ... لمِ أمْسَى من أعظم الأرزاء
أقفرتْ بعده ربوعُ الأحادي ... ثِ وأقوتْ معالمُ الأنباء
كان من أعلم الأنام بأسما ... ء رجال الحديثِ والعلماء
كان علاَّمةً ونسَّابةً لم ... يَخْفَ عنه شىءٌ من الأشياء
أنت أعلى من أن تُحَدَّ بوصفٍ ... بلغتهُ بلاغةُ البلغاء

وفتيان فى المرثية مخزون الفؤاد مكبر لفجيعة دمشق فى محدِّثها الذى لايبارَى ومؤرخها الذى لايجارَى . وهو فى البيت الثانى يصور فى ألم إقفار المدرسة النورية من محدثها الأكبر وإقواء أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذى يقال إنه كان يقع فى ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره – إن لم يكن أعلمهم – بالحديث النبوى ورجاله وبتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم .

ويتوفى بعده فى السنة التالية القاضى ابوالفضل كمال الدين محمد بن الشَّهْرزورى وكان قد ولى القضاء لعماد الدين زنكى فى الموصل ، وتوفِّى فالتحق بابنه نور الدين فولاَّه القضاء فى دمشق وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقرَّه صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدمَ الإسلامُ معدومَ المثالِ ... وهوتْ من أوْجِها شمسُ المعالى
ولسانُ الشَّرْع قد أُلبسَ عِيًّا ... بعد أن كان جريئًا فى المقال
وسماءُ الدين قد ران عَلى ... بدرها الثُّقْصانُ من بعد الكمال
والقضايا قاضياتٌ نَحْبَها ... إثْرَهُ حُزْنا على تلك الخلالِ
ماتَ من كان لأهل العلم كَهْفًا ... وثِمالاً مُحْسِنًا أىَّ ثمالِ[1]

وهو يبكى الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه ، إذ كان جوادا وغيثا مدرارا ، كما كان مرجعا للعلماء – كما يقول فتيان – وثمالا وسندا لهم وموئلا . ويتوفَّى تقى الدين عمر صاحب حَماة فيؤبنه بمرثية يقول فيها :

أباحَ ثغورَ الكفرِ بالسيف عَنْوَةً ... وسدَّ ثغور السِّلم بالطَّعْن فى الثَّغَرْ
وكيف يُلام المسلمون على الأسى ... وقد عدم الإسلامُ ناصرَه عُمَرْ
لقد كانَ يلقَى المُرْهفاتِ بوجهِهِ ... وسُمْرَ القنا بالصَّدْر فى الوِرْد والصَّدَرْ[2]
وكان يردُّ الجَحْفَل المَجْرَ وحده ... يَمسُّون بالأيدى الظهورَ من الخَوَرْ[3]

وهو يشيد ببسالته فى حرب حَملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا من أبطالهم طالما دوَّخ الصليبيين ، وطالما نازلهم راميا بنفسه فى أتون الحرب مقبلا دائما معرِّضا وجهه للسيوف وصدره للرماح ، وكم ردّ من جحافلهم الكثيرة وولوا أدبارهم فزعين مروَّعين . ويتوفَّى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤبنه بمثل قوله :

لئن كان خَلْقُ الخلقِ من طينِ آدمٍ ... فمن نورِ خَلْقِ الله خَلْقُك ياغازى

(١) الثمال : الملجأ والغياث
(٢) المرهفات : السيوف . القنا : الرماح
(٣) المجر : الكثيف

فمنْ لليتامى والأراملِ بعده يقومُ بإكرامٍ عليهم وإعزازِ
مَضَى مُلْكُهُ المحروسُ من عيب عائبٍ ومن عَبَثِ الزَّارى ومن عنَت الرَّازى

وكان الغازى مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العارى ويطعم الجائع عالى الهمة حسن التدبير والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشعراء ، فحمى ملكه – كما يقول فتيان – من عيب العائب وزراية المزرى وعنت الرازى أو الممتحن المختبر .

ولفتيان بجانب مراثيه شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم كقوله :

علام تحرُّكى والحظُّ ساكنْ ومانهنهتُ فى طلبٍ ولكنْ
أرى نَذْلاً تقدِّمُه المساوى على حُرٍّ تؤخِّرهُ المحاسِنْ

وهى شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون مايتمنون أو مايرون أنهم جديرون به . ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا مايقوله فتيان من أن لافائدة فى الحركة وأن المساوى تقدم أصحابها بينما تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعدُ فى الشكوى وإغراق فى التشاؤم .

مصطفى[1] البابىّ

هو مصطفى بن عبد الملك –وقيل عثمان – البابى ، ولد بالباب إحدى قرى حلب فى القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ونشأ بحلب وتتلمذ على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إستانبول وأفاد من علمائها وعيِّن قاضيا لطرابلس وتنقل قاضيا فى بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز فى المدينة المنورة ، وتوفى بمكة فى أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان البابى شاعرا مجيدا ، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء فى تلك الحقب ، ويتخلل المديحَ أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من قصيدة استهلها محزونا لتحول عهد مية ، ويقول إنه مازال يبكى الأطلال حتى بكته بدمعها إشفاقا عليه ، ويلتفت إلى الدهر شاكيا .

---

(١) انظر فى مصطفى البابى وشعره نفحة الريحانة ٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه فى بيروت سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزرى وفتح الله بن النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ .

أيُّ ذنبٍ نعاتب الدهرَ فيهِ ... وعتابُ الأيام داءٌ عُضالُ
أنا مابين فرقةٍ تجمع الشَّمْـ ... ـمَ وبُعْدٍ تدنو به الآجالُ
وخطوبٍ ألفتُها يستعيذُ الـ ... ـخوفُ منها وتُذْعَر الأهوال
وأمانٍ تجاذب الدهرَ ذَيْلَ الـ ... ـحظِّ والدهرُ جاذبٌ جدَّالُ
هِمَّةٌ أرَّقَتْ جفونَ الأمانى ... بوعودٍ للدهر فيها مِطالُ
أتمنَّى من الزمان وفاءً ... ووفاءُ الزمان أمرٌ محالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدرى لكثرتها ، أى ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها فى فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيذ الخوف من شرها وتفزع الأهوال . وتلك أمانيه ماتزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من ينازعه ، وفى صدره همة تؤرق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود مايزال الدهر لايفى بها ، وكأن وفاءه أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صاحبىَّ ابْغِيا لنا خارجَ العا ... لَمِ دارًا فبئسَ دارُ الزِّحامِ
واصْدُقانى ألستما بين ليلٍ ... ونهارٍ مالى حليفُ ظلام
واستعيرا لمقلتى هجعةً عـ ... ـلَّ منامى يعود لو فى منام
من أمورٍ تَقْذِى العيونَ وأخرى ... تَصْدع السمعَ مثل وَخْز السِّهام
مشربٌ كلُّه قَذًى سَوَّغَتْه ... إلفُ هذى النفوس للأجسامِ
من أراد العيشَ الهنىَّ فلا يُعْـ ... ـملُ فكرا فالعَيْشُ عَيْشُ السَّوامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسى وغير أناسى أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنهما يتعاقبان فلماذا هو يعيش فى ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه ، فهل يجد هجعة أو لحظة من نوم حتى ولو فى الخيال والمنام ، وهيهات فإن الدنيا مليئة بما يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام ، حتى لكأنها مورد من غسلين أو زقوم ، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تطلب من متاع مادى . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الربانى عبد القادر الجيلانى صاحب الطريقة الجيلانيَّة فضلا عما فى ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربَّانية .

٤

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابة ، ومرت فى كتاب العصر العباسى الأول عناية أبى تمام بوصف الطبيعة فى مقدمات مديحه أو مستقلةً فى بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفه للطير وأحاسيسه ، على نحو ماعرضنا هناك من تصويره لُقْمِرىٍّ وقُمريَّةٍ يتساقيان رحيق الهوى ، بينما هو محزون شديد الحزن . ووقفنا فى كتابنا العصر العباسى الثانى عند براعة البحترى فى وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . ونلتقى فى أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب فى الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة فى وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة فى وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

غيثٌ أتانا مؤذنٌ بِخَفْضِ ... متصلُ الوَبْلِ حَثيثُ الرَّكْضِ
يضحك فى بَرْقٍ خفىِّ الوَمْضِ ... كالكفِّ فى انبساطها والقَبْضِ
والأرضُ تُجْلَى بالنبات الغَضِّ ... فى حَلْيِها المحمرِّ والمبيضِّ
وأُقْحُوانٍ كاللُّجَيْنِ مَحْضِ ... ونرجسٍ ذاكى النسيم بَضِّ
مثل العيون رَنَّقَتْ للغُمْضِ ... ترنو ويغشاها الكرَى فتُغْضِى

وهو مطر متصل الوبل يؤذن – كما يقول – بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالكف تنبسط وسرعان ماتنقبض ، والأرض كأنها فى حفل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألأ كالفضة الخالصة والنرجس العطر النضر مثل العيون تنكسر جفونها للنوم ، وهى تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغفى أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة ، وتنسب إلى سيف الدولة الحمدانى الأبيات التالية فى قوس قزح[١] :

لقد نشرتْ أيدى الجَنوبِ مطارفًا ... على الجوِّ دُكْنًا والحواشى على الأرضِ
يطرِّزها قوسُ الغمام بأصفرٍ ... على أحمرٍ فى أخضرٍ تحت مُبْيَضٍّ

(١) اليتيمة ١/٣١

كأذيال خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فى غلائلٍ مصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بَعْضِ

يقول : رياح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكناء مغبرَّة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيها على الأرض ، وقوس قزح يطرِّزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياوتية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت فى غِلالات أو ثياب رقيقة صُبِغَتْ بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض . وهى صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الخريدة[1] :

الشام شامةُ وَجْنةِ الدنيا كما إنسانُ مقلتها الغَضيضةِ جلَّقُ
من آسِها لك جَنَّةٌ لاتنقضى ومن الشقيق جهنَّمٌ لا تَحْرُق
فعلام تصحو والحمامُ كأنها سَكْرَى تغنِّى تارة وتصفِّق
وتلوم فى حب الديار جهالةً هيهات يسلوها فؤادٌ شَيِّقُ

وهو يجعل الشام خالا فى وجنة الدنيا ويجعل «جِلَّقَ» اسم دمشق القديم إنسان مقلتها الغضيضة التى ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تخدِّر بجمالها أحاسيس مُشاهدها ، فلا يصحو ، والحمام من حوله فرح بهيج يغنى ويصفق طربا . وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية .

ويقول فتيان الشاغورى فى وصف قرية الزبدانى بشهر كانون شتاء والثلوج تتراكم على أشجارها ونباتاتها فى شهر كانون زمن الشتاء مهيئة لازدهار أزهارها فى زمن الربيع [2] :

قد أجمدَ الخمرَ كانونٌ بكل قَدحْ وأخمد الجمرَ فى الكانون حين قَدحْ
ياجَنَّةَ الزَّبَدانى أنت مسفرةٌ عن وَجْه حُسنٍ إذا وَجْهُ الزمان كَلِحْ
فالثلج قُطْنٌ عليكِ السُّحْبُ تَنْدِفُه والجو يَحْلجه والقَوْسُ قوسُ قُزَحْ

وقد صور فتيان كل ما يحمل ماء فى الزبدانى بأقداح تحمل خمرا ، وقد جمَّدها القرّ الشديد وأخمد الجمر فى الكانون أو الموقد حين اتَّقد . ويتصور قرية الزبدانى جنة من جنان الدنيا ، ومايلبث أن يصوِّر الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قزح . والجو يحلجه . صورة بديعة .

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٧/١ (٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤

ويقول الوداعى على بن المظفر فى مناظر رأس العين ببعلبك[١] :

ياحادىَ الأظعان إن شارفتْ مِنْ بَعْلَبكٍّ سَفْحَ لُبْنانهِ
فاقْرأْ تحياتى على نازلٍ فى مَحْجِرِ العين كإنسانه
والروضُ يُهْدى مَعْ نسيم الصَّبا نَشْرَ خُزَامَاهُ وريحَانهِ
وراسلَ القُمْرِىُّ ورقاءَهُ شَدْوًا على أوتار عيدانهِ

وقد أشار الوداعى إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبته ، وأبدع فى البيت الأخير إذ جعل القمرى المترنم على عيدان الأشجار يراسل صاحبته شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان . وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند معاصريه فى زمن المماليك ، وبعدهم فى زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس فى وصف الربيع[٢] :

نثر الربيعُ ذخائرَ النُّـ ـوَّار من جَيْبِ الغَوَادى
والوَرْدُ مخْضُوبُ البنا نِ مضرَّجُ الوَجَنات نادى
حَرَسْتُهُ شوكةُ حُسْنهِ من أن تُمَدَّ له الأيادى
والعندليبُ أمامه بِفصيح نَغْمتهِ ينادى
من رام يَعْبَثُ بالخدو د فدونها خَرْطُ القَتادِ[٣]

والصور فى الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من حبيب السحب الغوادى والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لألئ الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادى والعندليب ينادى : دون هذه الوجنات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشىء لاينال إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه فى متنزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى فى الأديرة ، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالغزل ، وتمادى بعض الشعراء فى مجونه وأسرف فى هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبى الرقعمق[٤] الأنطاكى شاعر المعز الفاطمى وأبنائه ووزرائهم ، وكان

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٤٢
(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الريحانه ٥١٢/٢
(٣) دونه خرط القتاد: مثل يضرب للسى، لاينال إلا بمشقة شديدة.
(٤) انظر فى أبى الرقعمق اليتيمة ٣٢٦/١ وابن خلكان ١٣١/١ والعبر ٧٠/٣ والشذرات ١٥٥/٣.

لايستحى من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبى الحجاج ماجن العراق الذى تحدثنا عن مجونه وهزله فى الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله[١] :

تـوهَّـمتُ أُمـرا فـلم أنْبِسِ بحرفٍ ونـاديتُ بـالأكـؤس
حُـمَيَّا كـأن سَـنَـا نـورها سنا بارقٍ لاح فى الحِنْدس[٢]
يُـعـاطـيـكـهـا رَشأ طرْفُهُ سريعُ إلى تلفِ الأنْفُسِ
بِــخَــدٍّ يــروقك تـوريــدُه وعينٍ تنوبُ عن النَّرجِسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينبس ببنت شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التى تلعب حُمَيَّاها بخياله ، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع فى دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطَّرف لتقدمها إليك فتصيبك فى الصميم بخد مورَّدٍ وعين فاتنة .

ويقول الغزى الذى مرت ترجمته[٣] :

قُمْ نَفْتَرِعْها كأنها الذهبُ بِكرًا ، أبوها وأمُّها العِنَبُ
أرقّ مِنْ عَبْرة اليتيم ومن عبارةِ الصَّبِّ قلبه وَصِبُ
مدامةٌ تصقلُ القلوبَ إذا رانتْ عليها الهمومُ والرِّيَبُ
كئوسُـهـا أنجمٌ نَضِلُّ بها لايهتدى من تُضِلُّه الشُّهُبُ
لاقَدْمَ فينا ولا فِدامَ لها عروسُ دَنٍّ عقودُها الحَبَبُ

وهو يقول لصاحبه قم نفترعها أو نفتضها ونشربها ، إنها فى رأيه -كعروس بكر- أبوها وأمها العنب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو المحب الوصب الموجع قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والريب أو الشكوك ، ويعجب من كئوسها أن تكون أنجما ولاتهدى ، بل تضل صاحبها وأى ضلال بينما عادة النجوم أن تهدى ، ومن تضله لا يهتدى أبدا ، لأنه فقد هداه . ويذكر أن ليس فى رفاقه فدم أو أحمق وأنه لافدام لها أو مصفاة إذْهى شديدة الصفاء ، ويقول إنها عروس دَنٍّ عقود جِيدها لآلئ الحبَبِ التى تعلو كئوسها حين يمتزج بها الماء . ويدعو فتيان الشاغورى صديقا إلى نزهة قائلا[٤] :

---

(١) اليتيمة ٣١٢/١

(٢) حميا الخمر : سورتها وشدتها . سنا : ضوء .
الحندس : دجى الليل الشديد السواد .

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

بادرْ إلينا فإن الراحَ ممكنةٌ والكأسُ دائرةٌ والشَّمْلُ مجتمعُ
ويومُنا طيِّبٌ صافى الأديم وما فيه هواءٌ ولا فى رأسه قَزَعُ
والطير ترقصُ فى الأغصان من طربٍ تكاد منه على هاماتِنا تقَعُ

وفتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع لا فيه عواصف ولا فى سمائه قزع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير ترقص على الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رءوسهم .

وتكثر مقطعات الشعر فى مجالس اللهو سواء فى الخمر أو فى الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد لهم الحموى فى خزانته فصولا طويلة هم مجير الدين بن تميم ، وسنخصه بترجمة ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضى محيى الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن المظفر الوداعى المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبى قوله [١] :

باكرْ إلى الروضة نَسْتجلها فشغرُها فى الصبح بَسَّامُ
والنرجسُ الغَضُّ اعتراه الحَيَا فغضَّ طرفا فيه أسقام
وبلبلُ الدَّوْحِ فصيحٌ على الأ يْكة والشَّحْرورُ تمتام
فعاطنى الصَّهباء مشمولةً عذراء فالواشون نُوَّام
واكتمْ أحاديث الهوى بيننا فنى خلال الروض نَمَّام

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التى أشاعتها مصر منذ العصر الفاطمى عناية واسعة ، وقد ورَّى فى البيت الثانى بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحيا بمعنى المطر . وجعل للبلبل لجمال غنائه وشدوه الفصاحة وللشحرور وهو نوع من العصافير التمتمة . ضرب من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستتم الصورة بأنها بكر أو عذراء والواشون نوام . وعاد إلى التورية فى البيت الأخير بكلمة نمَّام – وهو ضرب من السَّعتر مزهر – عن النَّمام الحقيق من الأشخاص . ويقول محيى الدين بن قرناص [٢] :

روضةٌ من قَرْقَفٍ أنهارُها وغناءُ الوُرْق فيها بارتفاعْ
لا تَلُمْ أغصانها إن رقصتْ فَهْىَ ما بين شرابٍ وسماع

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٦ (٢) نفس المصدر ص ٣٣٠

وقد ورَّى محيي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافى عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أخذه السكر ، بل إن الأغصان نفسها التى رويت من تلك الأنهار سكرت فرقصت ، فلاعجب أن يشدو الحمام شدوا عاليا . وأنشد الحموى فى خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة كثيرة فى الرياض ومثله الوداعى ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل الغرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حيَّين طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول على بن محمد الحشرى الشامى المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة [1] :

قُمْ هاتِها وضميرُ الليلِ منشرحٌ والبدرُ فى لُجَّة الظلماء مُسْتَبِحُ
عجِّلْ بها وحجابُ الليل منسدلٌ من قبل يبدو لنا فى وَكْرِه الصُّبُحُ
واستضحكِ الدهرَ قد طال العُبوس به لايضحك الدهرُ حتى يضحك القدَحُ
ولا يطيب الهوى يوما لمغتبقٍ حتى يكون له فى اليوم مُصْطَبَحُ

وهو يخاطب ساقيا أن يناوله كأس الخمر والليلُ من حوله ، مبتهج وأضواء البدر تلمع فى جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملأ الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لايقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس فى يده ، ويزعم أن الهوى لايطيب لمن يشرب الخمر غَبوقًا وهو شربها بالعشى حتى يكون له منها صَبوح وهو شربها فى الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو .

الوأواء [2] الدمشقى

هو محمد بن أحمد الغسانى المشهور بالوأواء الدمشقى ، من أهل دمشق ، وُلد بها ونشأ ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب . يدل على ذلك مارواه الثعالبى فى اليتيمة من أنه لُقِّبَ بالوأواء لأنه كان مناديا بسوق الفاكهة ، أو كما كانوا يسمونها دار البطيخ ، ينادى على الفواكه جلبا للمشترين . وقد ذكرنا مرارا فى حديثنا عن الشعراء أنهم — فى أغلب الأمر — كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هيأتهم لنظمه بل للتفوق فيه . يلقانا ذلك فى بغداد وفى القاهرة وفى

---

(١) نفحة الريحانة [illegible] ... طبعة المجمع العلمى العربى بدمشق [illegible]

(٢) [illegible]

لشعراء [illegible]

جميع بلدان العالم العربى . ومكّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد ، وكانت دائما هى وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة مايزال يتردد عليها حتى يحسن مايريد من الفقه مثلا أو من رواية الشعر . ودائما كان يتخرج فى هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحوما تخرج الوأواء المنادى على الفاكهة فى حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أيدينا ولا فى ديوان الوأواء مايوضح متى وُلد . وأيضا ليس فى الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل مافيه أنه لزم شريفا من سادة دمشق ووجهائها يمدحه ، وأنه أعطاه فى أول مدحة له عشرين دينارا ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيق أحمد بن الحسين العلوى ، فهو من أشراف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جوادا ممدَّحًا ، وكان على صلة بسيف الدولة فى أول إمارته لحلب فى العقد الرابع من القرن الرابع الهجرى . وربما كان هو الذى قدَّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتى ٣٣٣ و٣٣٤ . وفى ديوانه ثلاث قصائد فى مديحه ، ولذلك عدَّ من شعرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقيق أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسبا به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يدور حول محاور ثلاثة : الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، وكثيرا مايمزج بينها جميعا مثل قوله فى القصيدة الأولى من ديوانه :

حاز الجمالَ بأسْرِهِ فكأنما ... قُسِمتْ عليه محاسنُ الأشياءِ
متبسِّمٌ عن لؤلؤٍ رَطْبٍ حكى ... بَرَدًا تساقطَ من عقود سماءِ
تُغْنى عن التفاح حمرةُ خَدِّه ... وتنوب رِيقتُهُ عن الصَّهْباءِ
فامزُجْ بمائك نارَ كأسِك واسقنى ... فلقد مزَجتُ مدامعى بدمائى
واشربْ على زَهر الرياض مُدامةً ... تنفى الهموم بعاجل السَّراءِ
لطفتْ فصارتْ من لطيف محلِّها ... تجرى مجارى الروح فى الأعضاء

والوأواء معروف بكثرة تصاويره فى أشعاره ، فساقيته الخمر تبتسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود فى السماء ، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح ، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر . ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء . ويقول لصاحبه اشربْ على زهر الرياض الذكى الرائحة تلك الخمر التى تجلب السرور كما يقول ، ويزعم

أنها تجرى فى جسمه مجرى الروح فى الأعضاء. ومن قوله فى وصف الراح :

وبنتِ كَرْمٍ كأنها لَهَبٌ تكاد منها الأكفُّ تَلْتهبُ
تلعب فى كأسها إذا مُزِجَتْ كأنما يستفزُّها طربُ
فى عَرْصَة الكأسِ حين تمزجها سماءُ تِبْرٍ نجومُها ذهبُ

وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكَرْم ، ويقول إنها حارَّة كأنها لسان لهب ، وإن الأكف فى زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلعب فى كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حَبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عَرْصة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه – بزعمه سماء فضية من فتات التبر ، نجومها – أى حبابها – ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقيانى ذبيحةَ الماء فى الكأ س وكُفًّا عن شُرْب ماتسقيانى
إننى قد أمنتُ بالأمس إذ مـ ـتُّ بها أن أموت موتا ثانى
اسْقِنى القهوةَ التى تنبتُ الوَرْ دَ – إذا شئتَ – فى خدود الغوانى
فى رياضٍ تريك فى الليل منها سُرُجًا من شقائق النُّعمانِ
كتبتْها أيدى السحاب بأقلا مِ دموعٍ على طُروسِ المَغانى

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشربها ذبحا ، ويطلب إلى صاحبيه أن لا يسقياه الماء وإنما يسقيانه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيا ، ومثله من مدمنى الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أى الخمر تضرِّج خدود الغوانى بالحمرة فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسيها فى رياض تنير بها ليلا الورود المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدى السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هى دموع العشاق التى استحالت دما قانيا وقد دُوِّنت على طروس ، هى صحف المغانى أو الرياض . ودائما يعنى الوأواء فى شعره بالتصاوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور :

فأمطرتْ لؤلؤًا من نَرْجِسٍ وسَقَتْ وَرْدًا وعَضَّتْ على العُنَّابِ بالبَرَدِ

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعُنَّاب للأصابع والبَرَد للإنسان ، وهى صور لا تحمل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده ، وقد بنى الحريرى على هذا البيت نفسه مقامته الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا فى عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

ابن[1] قُسَيْم الحَمَوِىّ

هو مسلم بن الخَضِر بن قُسَيْم التَّنوخى الحموى ، ولد ونشأ بحماة ، ويقول العماد : «كان ثالث القيسرانى وابن منير بلغ إلى درجتهما .. وفاق شعرَهما شعرُه ، لكنه خانه عمره ، وفلَّ شَبا (حدَّ) شبابه ، وحل شَعوب (الموت) بشِعابه ، وذلك فى سنة نيف وأربعين وخمسمائة» . والعماد يقول إنه توفى شابا ويبدو أن ميلاده لايعدو العقد الأول من القرن السادس الهجرى كما يبدو أن موهبته الشعرية نضجت مبكرة ، وسرعان ماعمد إلى التكسب بشعره فمدح صاحب حماة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب ، وكان عماد الدين زنكى قد أخذ فى منازلتهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزاغة وحاصر حصن شَيْزر بالقرب من حماة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكى فأسرع إليه فى عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكى وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفى مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله :

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ تذلُّ لك الصِّعابُ وتستقيمُ

وكان ابن قسيم حينئذ فى ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفى عام ٥٣٤ حاصر زنكى دمشق ، وأعلن له أُنُر مدبر دولة أبناء طغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق فى طاعته . وفى هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكى ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطارح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فانه يمدح أُنُر مدبر دولة آبق بن محمد بن بورى ، وكان زنكى قد ارتضى أن تظل بها أسرة طغتكين والقائم على دولتهم أنر . فاتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكى ، وله فيه مدحة أرخها العماد الأصبهانى بسنة ٥٤٢ . ولانرتاب فى أنه ظل متصلا بزنكى يمدحه وخاصة حين استولى على الرُّها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفى زنكى سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرُّها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين فى عسكره ، فهرب جوسلين . وافتتح نور الدين الرُّها ثانية ،

---

(١) انظر فى ابن قسيم وشعره الخريدة (قسم الشام) لأبى شامة ٣٢/١
٤٣٣/١ ومفرج الكروب لابن واصل ٨٢/١ والروضتين

وهنأه ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفيَّ الشاعر سريعا فى نفس السنة ويقول العماد الأصبهانى : إنه مات شابا .

وقد استعرض العماد فى خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهى تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يغرق فى اللهو والمجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله :

خَيْرُ ما أصبحتَ مخلوع العِذارِ ... فانْفِ عنك الهمَّ بالكأس المُدارِ
قم بنا نَنْتهبِ اللذةَ فى ... ظلِّ أيام الشباب المستعارِ
إنما العارُ الذى تحذره ... أن ترانى من لباس العار عارى
وسعيدٌ من تقضّى عمرُه ... بين كاسات رُضابٍ وعُقارِ[1]
فى اصطباحٍ واغتباقٍ واقترا ... بٍ واغترابٍ وانهتاكٍ واستتارِ

وهو يصرِّح – ولايخفى – بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير آبه لما يجرُّه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هناءته وسعادته ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واغتباقا كما يقول ، ويعكف عليها قارًّا فى بلدته حماة ومغتربا فى دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعصيان ربه منتهكا لحرماته . ومن قوله فى خمرية ثانية .

باكرا شمسَ القنانى ... تُـدْركا كلَّ الأمانى
وخذا فى لذَّةِ العَيْـ ... ـشِ على رَغْم الزمان
قهوةً ألبسها المزْ ... جُ قميصا من جُمان[2]
كخدود الورد من تَحـ ... ـتِ ثُغور الأقحوان
إنما البُغْية أن أصـ ... ـبحَ مخلوعَ العِنانِ

وهو يدعو إلى المتاع بالخمر ، ويصورها بصور جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قميصا لؤلؤيًّا . ويصورها فى حمرتها والماء آخذ بتلابيبها بثغور من الأقحوان الأبيض تعلوها خدود وردية . ولايلبث أن يعلن فى أبيات تالية عصيانه لربه ، فكل مايبغيه أن يظل سادرا فى خلع عنانه – أو كما قال فى المقطوعة السابقة – فى خلع عِذاره منتهكا ساجدا فى قبلة الكأس لتسبيح مثانى العود

---

(١) الرضاب : الريق . العقار : الخمر .
(٢) الجمان : اللؤلؤ

وأوتاره . وكأنه يعيد لنا صورة أو صورا من خمريات أبى نواس المتهتكة الخليعة المارقة .

ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار فى وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من ذلك قوله يصف رُمَّانة :

ومحمرَّةٍ من بنات الغُصو نِ يمنعها ثِقلُها أن تميدا
منكَّسةُ التاج فى دَسْتها تفوق الخدودَ وتحكى النُّهودا
تُفَضّ فتفترُّ عن مَبْسمٍ كأن به من عقيقٍ عقودا
كأن المقابلَ من حَبِّها ثغورٌ تقبِّلُ فيها خُدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكَّسة التاج فى دستها أو صدرها تصوير بديع لأنها تتهدل وتتدلى فى غصنهاوعلى صدرها بقية نُوَّارها . ويتصور حباتها عقودا من عقيق ، وكأنها تحمل بتلك الحبات ومايحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا . وكان ابن قسيم شاعرًا مجيدًا ، ومرَّ بنا أنه كان يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعى .

مجير[1] الدين بن تميم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم ، ولد بدمشق ونشأبها ، وسال الشعر على لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل فى جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢–٦٨٣هـ) جنديا ، إحساسا منه بفتوته وشجاعته ، ويصور إقدامه وبسالته فى شعره قائلا :

دَعْنى أخاطِر فى الحروب بمُهجتى إما أموت بها وإما أُرْزَقُ
فسوادُ عيشى لا أراهُ أبيضًا إلا إذا احمرَّ السِّنانُ الأزرقُ

وقرَّبه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به . ويقول صاحب فوات الوفيات : « هو فى التضمين الذى عاناه فضلاء المتأخرين (من الشعراء) آية ، وفى صحة المعانى والذوق اللطيف غاية ، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحلّ تركيبه وينقله بألفاظه إلى معنى ثان ، حتى كأن الناظم

(١) انظر فى مجير الدين بن تميم وشعره فوات الوفيات ٥٣٨/٢ وخزانة الأدب للحموى، ص ٣١٩ – ٣٢٥ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفى مكتبة جامعة القاهرة مصورة لمختارات من ديوانه بخط الصفدى فى ٤٧ ورقة

الأول ، إنما اراد به المعنى الثانى وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطالع كل ديوانٍ أراهُ ولم أزجرْ عن التضمين طَيْرى
أضمّنُ كلَّ بيت فيه مَعْنىً فشِعْرى نصفُه من شِعْرِ غيْرى

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه «كان جنديا محتشما شجاعا مطبوعا كريم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل» ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «كان من الشعراء المعدودين» . ولانعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومجير الدين بن تميم من أصحاب المقطّعات الطريفة فى الغزل والطبيعة والخمر ، ولايبارَى فى ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات فى مقطعاته ، مع الظرف وخفة الروح والتعليلات الحسنة ، ونقتطف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله فى الساقية والطبيعة من حولها :

تأمّلْ إلى الدولاب والنهرِ إذ جرَى ودمعُها بين الرياض غزيرُ
كأن نسيمَ الروضِ قد ضاع منهما فأصبح ذا يبكى وذاك يدورُ

ولكلمة «ضاع» معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التى يحملها النسيم عن الأزهار ، ومعنى الفقد والهلاك ، وبذلك تمت لابن تميم التورية التى يريدها من استخدامه للكلمة ، وقد أراد المعنى الثانى . ويقول مفاخرا بين الأرض والسماء :

ياجاعلَ الأُفْق مثلَ الأرض حُجّتَهُ بالشمس إذ بزغتْ والبدرِ حين وَضَحْ
كم من شمومٍ وأقمارٍ إذا سَرَحتْ فى الأرض طرتَ إليها خِفّةً وفَرح
ولا تَقُلْ : قُزَحٌ فى الجوِّ زَيّنَهُ فى كل غُصْنٍ ترى فى الأرض قَوْسَ قُزَحْ

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلا إن فى الأرض شموسا وأقمارا من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسنا . ويقول لصاحب السماء : لا تحتج بجمال قوس قزح ، فأغصان الرياض فى الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قزح نضرةً أرجَة . ويقول :

سبقتْ إليك من الحديقة وردةٌ وافتْك قبلَ أوانها تَطْفيلا
طمعتْ بلَثْمك إذ رأتْك فجمّعتْ فَمَها إليك كطالبٍ تقبيلا

وهى وردة فى بدء تفتحها وهى لاتزال فى كمِّها ، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تتفتح هذا التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول فى وصف ناعورة أو ساقية :

ناعورةٌ مذ ضاع منها قَلْبُها ... ناحتْ عليه بأَنَّةٍ وبكاء
وتعلَّلتْ بلقائه فلأجل ذا ... جعلتْ تُدير عيونَها فى الماء

فقواديسها لاتهوى فارغة طلبا للماء والصعود به ، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذى ضاع منها ، وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه . ويقول :

لمْ لاأميلُ إلى الرِّياض وزهْرِها ... وأقيم منها تحت ظلٍّ ضافى
والغُصْنُ يلقانى بثغرٍ باسمٍ ... والماءُ يلقانى بقلبٍ صافى

والثغر الباسم هو الأقحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالثغر كثيرا ، وفى البيتين رقة ودقة حس وخفة روح . وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما فى قوله :

كيف السبيلُ لأن أُقبِّل خَدَّ مَنْ ... أهْوَى وقد نامتْ عيونُ الحُرَّسِ
وأصابعُ المنثور تُومِى نحونا ... حسدًا وتَغْمِزُها عيونُ النَّرْجِس

والمنثور زهر ذكى يزهو فى أعلى سيقانه ، شبهه ابن تميم بالأصابع ، وتشبيه الشعراء للنرجس بالعيون قديم . وقد استغلها جميعا فى هذا التعليل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبته . ويقول فى الخمر مداعبا :

روحى الفداءُ لمن أدار بلحظهِ ... صَهْباء فى عقلى لها تأثيرُ
فاعجبْ له أنَّى يصونُ بلحظهِ ... مشمولةً وإناؤها مكسور

وكلمة « مكسور » إما من كسر الإناء بمعنى تهشمه وتحطمه ، وإما كسر مافيه من الخمر بالماء وهو كسر حميَّاها وثورته ، وهو المعنى المراد فى البيت . ويقول أيضا فى الخمر :

وليلةٍ بتُّ أُسْقَى فى غَياهبها ... راحًا تسُلُّ شبابى من يَد الهرَمِ
مازلت أشربها حتى نظرتُ إلى ... غَزالةِ الصبح ترعى نَرْجِسَ الظُّلَمِ

ويريد بالغزالة الشمس وبنرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجنًا مثل ابن قسيم ، ولاندرى هل كان يشرب الخمر حقا أو كان ينظم فيها محاكاة لمدمنيها تظرفا . ومن طرائفه فى الرياض قوله

بعثَ النسيمُ رسالةً بقدومهِ للروض فَهْوَ بقربه فَرْحانُ
ولطيبِ ما قرأ الهزَارُ ـ بشَدْوِهِ مضمونَها مالتْ له الأغصانُ

والهزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . وواضح مافى ميل الأغصان لسماع شدو الهزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر ومايحدث فى النفس من هزة الارتياح والسرور لسماع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أنشد منها صاحبا الفوات والخزانه بدائع كثيرة .

ابن [1] النقيب

هو عبدالرحمن بن محمد الحسينى الملقب بابن النقيب ، ولد فى دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة لأبيه النقيب الشريف ، وعُنى بتربيته ، فحفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيوخ أيامه بالإضافة إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، واتجه بها إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإلمام بالمديح ، ولم يكن فى حاجة إلى تكسب به ، ولذلك يمكن أن تعد مدائحه فى باب الإخوانيات ، وهى ليست الجوهر فى ديوانه المنشور ، إنما الجوهر فتنته بالطبيعة الدمشقية ومتنزهاتها وبجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة . ويقول المحبى « ما أذكره له تشبيه زُهْر (حسان) أوزَهر ، أو وصف روض مطلٌّ على نهر ، وهو ممن أُغرِىَ بهذين النوعين ، وذلك أما لميل غريزى فى فطرته ، أو لأن دمشق متروَّح فكرته » . ولم يطل به الدهر بين هذه المفاتن التى كانت تخلب لبه . فقد توفى فى الثالثة والثلاثين من عمره سنة ١٠٨١ للهجرة . ومن قوله فى نهر وروض على حافتيه :

النَّهْرُ يَصْدَا بهاتيك الظلالِ كما يَصْدا من الغِمْد حَدُّ الصارم الذَّكَرِ
والزَّهْرُ يَفْرشُ فى شَطَّيه مارقتْ فيها السحائبُ من رَيْطٍ ومن حِبَرِ
رَبيعةُ الوَشْىِ لاينفكُّ زِبْرِجُها يجلو لنا من حِلاها أحسنَ الصُّوَرِ [2]

(١) انظر فى ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٢/٣٩٠ ونفحة الريحانة ٢/٣٤ وديوانه (طبع المجمع العلمى العربى فى دمشق) وانظر مقدمتى أحمد الجندى وخليل مردم للديوان .

(٢) الزبرج : الحلية من الوشى أو الجوهر .

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لمعانها . وقد جعل ابن النقيب النهر يصدأ كما تصدأ السيوف ، أما هي فتصدأ بأغمادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ، والزهر يفرش فى شطيه مارقت أو نقشت فيها السحائب من رَيْط وحِبَر أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشى ربيعى لايزال زبرجه ونقشه يجلو من حِلَى الطبيعة وجواهرها أجمل الصور .. ويذكر مجلسا من مجالس أنسه فى بعض متنزهات دمشق قائلا :

ومجلسٍ حفَّتِ الغصونُ بنا فيه ووجْهُ الرياض مبتهجُ
كأن أوراقها يرفُّ بها فوق النَّدامى نَسيمُها الأرِجُ
خُضْرٌ من الأُزْرِ لاتزال بها مناكبُ الراقصات تختلج

وهى صورة بديعة ، إذ يجعل أوراق الاغصان – حين يرفّ نسيمها فوق الندامى – كأنها أزر أو شيلان تُظِلُّ مناكب الراقصات المختلجة المتحركة فى أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول فى بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يَثْنيها الصَّبا والبدرُ من خَلَلٍ يلوح ويُحْجَبُ
حسناءُ قد عامتْ وأرْخَتْ شَعْرَها فى لُجَّةٍ والموجُ فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسناء فى لُجَّة مرخية ذوائبَ شعرها وموج أضوائها من حولها يلعب فى فضاء الطبيعة الساحرة . وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل ، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بحمرة كقوله :

وزهْرِ قَرَنْفُل فى الروض يَحْكِى عَقيقَ دمٍ على صفحاتِ ماء
رأى وَجناتِ من أهوَى فأغْضَى فبان بوجهه أثَرُ الحياء

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وجنات صاحبته ، فأغضى عينيه وقارب بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطبيعة واللهو والمجون موشحات مختلفة منها ماعارض به لسان الدين بن الخطيب فى موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همى » . وله أيضا شعر دورى تتألف المنظومة منه بيتين بيتين . وبدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا مايقوله المحبى من أنه كان يتخيل التخيلات البعيدة البديعة فى التشابيه العجيبة » .

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومر بنا فى الفصل الأول استعراض لنسَّاكها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوى وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخره . وحين قام نظام الرهبنة فى المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتعمها أضواء الإسلام ، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وينزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النساك وتشيع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتتطاير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها فى غير هذا الموضع ، وطبيعى أن يجد ذلك صداه فى الشعر والشعراء الشاميين . ويلقانا فى ديوان أبى تمام باب للزهد ، ويظل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبى فراس [١] :

أما . يَرْدَعُ الموتُ أَهْلَ النُّهَى ... ويمنع عن غَيِّهِ مَنْ غَوَى
فيا لاهيًا آمنًا والحِمامُ ... إليه سريعٌ قريبُ المدى
إذا مامررتَ بأهلِ القُبُورِ ... تيقَّنْت أنك منهم غَدا
فلا أملٌ غيرُ عَفْوِ الإلهِ ... ولاعملٌ غيرُ ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع الغَوِىَّ عن غيِّه ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاهٍ آمنٍ على نفسه ولا يفكر فى هول ماينتظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رمسه ، ولا أمل له سوى عفو ربه فحرىٌّ به أن يكفّ عن كل موبقة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التفكير فى الحياة والموت نهاية كل حى وينشد [٢] :

هى النَّفْسُ تَهْوَى الرُّحْبَ فى كل موطنٍ ... فكيفَ بها إن ضاقَ فى الأرض قبرُها
وهل يَرْتَجِى خُضْرَ الملابس ظاعنٌ ... وقد مُزِّقَتْ فى باطن التُّرْبِ غُبْرُها
نوائبُ ألقتْ فى النفوس جرائحًا ... عَصَى كلَّ آسٍ فى البريَّة سَبْرُها
لىَ القوتُ فَلْيَغْمُرْ سَرَنْدِيبَ حظُّها ... من الدُّرِّ أو يكثُرْ بغانةَ تِبْرُها

(١) الديوان ٢/٦

(٢) اللزوميات (طبع مطبعة المحروسة) ١/٣١٢

وأبو العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يَكْنى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موحش تغبرُّ فيه هذه الثياب وتمزَّق تمزيقًا . ويقول تلك نوائب تصيب النفوس فى الصميم وتحدث فيها جراحا عميقة يستعصى سَبْرها ومعرفة غورها على كل طبيب ، ويذكر أنه لايفكر فى طيبات الحياة ولاتمر بخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسدُّ رمقه ، ولتمتلئ سرنديب – أو كما تسمى الآن سيلان – بمغاوص لآلئها من الدرر وليكثر بغانة فى غربىّ إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسبى قوتى . ومرَّ بنا أنه كان زاهدا فى الدنيا ونعيمها ، مكتفيا بالعدس والتين . ومر بنا أيضا أن ديوانه اللزوميات فى مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال فى مقدمته . ويقول ابن سنان الخفاجى[1] :

استغفرِ اللّهَ القديمَ وعُذْ بهِ ... من شرِّ غاوٍ فى الحُطام منافسِ
وافعَلْ جميلا لايضيعُ صَنيعهُ ... واسْمَحْ بقوتك للضعيف البائسِ
واقنَعْ ففى عيش القناعة نعمةٌ ... لاتتقى كفَّ الزمان الخالس
لاتفخرنَّ وإن فعلتَ فبالتُّقَى ... ناضلْ وفى بَذْل المكارم نافسِ

وهو يستغفر الله من شر كل غاوٍ منافس فى حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصى بفعل الجميل ومدِّ اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصى أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لايخاف على شىء يختلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالتقى ولاينافس إلا فى المكارم والمحامد . ويقول الحسن بن طارق الحلبى من شعراء الخريدة[2] :

عمرتَ دارَ فناءٍ لابقاء لها ... ظنًّا بأنك عنها غيرُ منتقلِ
أتعبتَ نفسك لا الدنيا ظفرتَ بها ... وأنت لاشكَّ فى الأخرى على وجَلِ
دارُ الإقامة أولى بالعِمارة من ... دارٍ نعيمُك فيها غيرُ متصلِ
فاعمَلْ لنفسك ماترجو النجاةَ به ... فليس يُنْجيك إلا صالحُ العمل

وهو يزهِّد فى الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التى ينبغى أن يعمل لها الإنسان ، وهى حقا الأجدر بأن يقدم لها كل مايستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

---

(١) الديوان ص ٥٧ (٢) الخريدة (قسم الشام) ١٥٨/٢

ويقول الإمام النووى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة[١] .

وجدتُ القناعةَ أصلَ الغِنَى ... فصرتُ بأذيالها مُمْتَسِكْ
فلا ذا يرانى على بابهِ ... ولا ذا يرانى به منهمكْ
وعشتُ غنيًّا بلا درهمٍ ... أمُرُّ على الناس شبْهَ المَلِكْ

وكان محيى الدين النووى إماما ورعا زاهدا مثابرًا على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكام – كما يقول – يراه على بابه طالبا حاجة ، ولا أحد يراه مشغولا به منهمكا ، فانهماكه إنما هو فى العبادة والتهجد والنسك وفتوى الناس فى أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوى آخذا نفسه فى حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى البابى الذى مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى تطؤها أقدامنا غير واعين ، بل إنه يبعد فى خياله قائلا .

قد غَنينا عن الدروس بما تُمْـ ... ـلى علينا صحائفُ الأيامِ
من عظَاتٍ تُتْلَى بغير لسانٍ ... وسطورٍ خُطَّتْ بلا أقلامِ
ولو أنَّ العيونَ زال غَشاها ... لرأتْ كلَّ أخْمَصٍ فوق هام[٢]
بل وفى كل وردةٍ ألفُ خَدٍّ ... وقضيبٍ يميسُ ألفُ قوامِ

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر فى هذا المصير المقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا ووراهم أهلهم التراب ، حتى لكأن أى مكان لايخلو منهم ، وحتى لكأننا نطؤهم بأقدامنا ، فهم منبثون فى كل بقعة وفى كل مكان . ويقول البابى لوزالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا – وياهول مانرى – أقداما تطأ رءوسا ، ولهالنا أن الورد النابت من الأرض يستمد حمرته من ألف خد ، وبالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من ألف قَدّ . ويلاحظ المحبى أن المشهور فى هذا المعنى قول أبى العلاء .

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظنُّ أديمَ الـ ... أرضِ إلا من هذه الأجْسادِ

---

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبى) ١/٣٠١ (٢) الأخمص : باطن القدم : الهام : الرأس .

وقول مهيار :

رُوَيْدًا بأخْفافِ المطيِّ فإنما تُداسُ جباهٌ فى الثَّرى وخدودُ

وكأن البابى نظر إلى معنى البيتين جميعا ، ويضيف المحبى أن منزع هذا كله قول المتنبى :

ويَدْفنُ بَعْضُنا بَعْضًا ويمشى أواخرُنا على هامِ الأوالى

والأوالى : الأوائل . ولايكتفى المحبى بذلك ، بل يقول أن معنى بيتى البابى دقيق ، وفى رُباعيات عمر الخيام بالفارسية من نوعه أشياء كثيرة ، ويذكر أنه ترجم له رباعية تحمل هذا المعنى على هذه الصورة :

فى الاعتبار بمن مضى من قبلنا عِبَرٌ وتلك هدايةُ المسترشدِ
فلكم طوتْ ترباؤنا أمما وهل مَيْتٌ بغير تَرائها لم يُلْحَد
حتى كأن شَقِيقَها دمُ أسرةٍ سفكتْ دماءهمُ عيونُ الخُرَّدِ
وبَنَفْسجُ الروضِ الندىُّ كأنه خِيلانُ وَجْناتِ الخدودِ الوُرَّد

فالشقيق الأحمر القانى يستمد مما سفكته عيون الجميلات من دماء العشاق ، والبنفسج الأحمر القاتم يستمد من خيلان وجناتهن . وكل ذلك بعد فى التصور والخيال .

وكان يرافق الزهد منذ القرن الثالث الهجرى نساك – كما مر بنا فى الفصل الأول – أقرب إلى المتصوفة منهم إلى الزهاد فى مقدمتهم ابن الجلاّء ، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمونها . طوال هذا القرن والقرون التالية من العراق وإيران ومصر . واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة من كانوا يقيمون بها للنسك والعبادة ، وامتد ذلك إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام . وذكرنا فى الفصل الأول نزول الغزالى بها سنة ٤٨٨ وأنه أخذ يستضىء بقوة بما كتبه أبونصر السراج والقشيرى فى الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة ، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل . وبذلك سدَّ الثلمة التى كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينهما . وزادها دعمًا نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرون من بناء الخانقاهات والرباطات للمتصوفة . وتبعهم فى ذلك نور الدين حين أصبحت الشام فى قبضته ، بل لقد اتسع فى العناية بهم ورَصْد النفقات عليهم . وظلت هذه العناية متصلة فى عهد صلاح الدين وخلفائه

الأيوبيين والمماليك مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر فى التصوف تياران كبيران : تيار سنى كانت تتبعه جماهير الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ماصورنا ذلك فى غير هذا الموضع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفى يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مثله فى القرن السادس الهجرى يحيى السهروردى الذى ترجمنا له فى إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثل هذا التيار فى القرن السابع محيى الدين بن عربى الذى نشأ فى الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه فى دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأبياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفى . وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل فى أعماقه . وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردى وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفى المتفلسف القديم تؤثر هى وأشعار التيار الصوفى السنى فى كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفى شعرى . وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية فى الناس ظهور الطريقة القلندرية التى ظهرت فى القرن السابع الهجرى مع ماداخلها من انحرافات ذكرناها فى الفصل الأول ، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المماليك . وسنترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفى الفلسفى ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمسانى وعبد الغنى النابلسى ، أما ابن عربى فعداده فى الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بنزعتى التصوف والزهد مديح نبوى كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويها بخلقه الكريم ورسالته العظمى وجهاده فى سبيل الله وفتوحه . وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه ، إذ انبثَّ كثير منه فى مدائحهم لأئمتهم العلويين وفى مراثيهم للحسين على نحو مانجد عند الصنوبرى الذى ترجمنا له فى كتاب العصر العباسى الثانى .. ولأبى العلاء فى اللزوميات قصيدة فى مديحه ، وفيها يشيد به وبرسالته النبوية الخالدة قائلا :

دعاكم إلى خير الأمور محمدٌ ... وليس العوالى فى القَنا كالسوافلِ
حداكم على تعظيم من خلَق الضُّحى ... وشُهْبَ الدُّجَى من طالعاتٍ وآفلِ
فصلَّى عليه اللهُ ماذرَّ شارقٌ ... ومافَتَّ مِسْكا ذِكْرُه فى المحافِلِ

وعوالى القنا أو الرماح هى الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذى خلق الشمس وماتغمر به الكون من الضياء وخلق النجوم التى تبزغ تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو مدبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحفّه ببركاته ماطلعت شمس وماعطر ذكره المحافل بمسك لايضاهيه مسك .

ويحتدم المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب التتار ، إذ أحسَّ الشعراء – بحق – أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكريم ، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوية [١] :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدُهُ ... وللشـــهادة تجريحٌ وتعديلُ
لولاه لم تك لاشمسٌ ولا قمرٌ ... ولا الفُراتُ وجاراه ولا النِّيلُ
مرتِّلُ الوَحْى يتلوهُ ويدرسه ... ولم يكن لكلام الله تَرْتيلُ
وسيِّد الرُّمْلِ حقا لاخفاء به ... وشافعٌ فى جميع الناس مقبولُ
بَشَّتْ نبوَّتَه الأخبارُ إذ نطقتْ ... فحدَّثَتْ عنه توراةٌ وإنجيلُ

ويقول ابن الساعاتى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلهم القائلين بالحقيقة المحمدية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، فلولاه لم تك شمس ولا قمر ولاحياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رتَّل الكلام ، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسالته العظمى . ويقول فتيان الشاغورى من مدحة نبوية مؤملا شفاعته فى يوم الحشر متمنيا زيارته [٢] :

أُؤمِّلُ من خير الأنامِ شفاعةً ... بها فى نعيمٍ بالجنان أخلَّدُ
وَدِدْتُ بأنى زرتُ قَبْرك راجلا ... وقَبَّلتُ تُرْبًا أنت فيها موسَّدُ
ومرَّغْتُ خَدِّى عند قبرك ضارعا ... بأرضٍ حَصاها لؤلؤٌ وزَبَرْجَدُ
وذاك ضريحٌ يَحْسُدُ المِسْكُ تُرْبَهُ ... وكلُّ شريفِ القدر لاشك يُحْسَدُ

وهو يؤمِّل فى شفاعة الرسول بالغفران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس ف المحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلا وقبَّله وعفَّر خدَّه بما حوله من التراب ضارعا متوسلا بأرض

(١) ديوان ابن الساعاتى ٤٨/١ (٢) ديوان فتيان ص ١٠٩

حصاها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على مايحمل من طيب لا يماثله طيب . وللسخاوى على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع فى المديح النبوى . وفى مدحة نبوية يقول الشاب الظريف منوها بالبقعة مثوى الرسول الكريم[١] :

أرضَ الأحبَّة من سَفْحٍ ومن كُثُبِ ... سَقاكِ منهمرُ الأنواء من كثَبِ[٢]
ياساكنى طيبةَ الفَيْحاءِ هل زمنٌ ... يُدْنى المحبَّ لنَيْل الحبِّ والأربِ
أرضٌ مع الله عَيْنُ الشمس تحرسُها ... فإن تغِبْ حَرَسَتْها أعينُ الشُّهب

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكثبانا من كثب أو قرب لتظل تزهر بالشذى العطر ، ويتمنى زمنا يحقق أربه وأمنيته من زيارة الجدث الطاهر . ويقول إن عين الشمس تحرسه نهارا وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلا حراسة يرعاها الله جَلَّ علاه .

وللشهاب محمود ديوان فى مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح النبهانية النبوية لإسماعيل النبهانى بطائفة من مدائحه ، وفى إحداها يصور الشهاب محمود ساعة وصول ركبه إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق فى غريبها ولم يلبثو أن زاروا القبر الزَّكيّ ، يقول[٢] :

وإذا شارفوا العَقيقَ تراءتْ ... من رُباه سَنا القِباب الزُّهْرِ
وتلقَّاهُمُ بَشيرُ التلاقى ... بِقَبولٍ تَسْرى قُبَيْلَ الفَجْرِ
وشَذا الروضةِ التى بين أزكى ... منبرٍ فى الدُّنا وأشرفِ قَبْرِ
حبذا ذاك من مقامٍ كريمٍ ... يُشْتَرَى يومهُ بكلِّ العُمْرِ

وهو يصور فرحة ركبه أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده قبيل الفجر . والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاق وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير إلى الحديث النبوى : « مابين قبرى والمنبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثول أمام القبرالطاهر يُشْتَرى يومها بالعمر كله . ولكمال الدين محمد بن على الزَّمْلكانى المتوفى سنة ٧٢٧ للهجرة مدحة نبوية رائعة يقول فيها[٣] :

---

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤
(٢) المجموعة النبهانية ١٧٣/٢
(٣) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

محمدٌ خيرُ خلقِ الله كلِّهمِ وفاتحُ الخير ماحى كلَّ إشراكِ
قد نال مرتبةً ما نالها أحدٌ من أنبياءٍ ذوى فَضْلٍ وأملاك
ياصاحبَ الجاه عند اللهِ خالقهِ ماردَّ جاهَك إلا كلُّ أفَّاك
ها قد قَصَدْتُك أشكُو بعض ما صنعتْ بىَ الذنوبُ وهذا ملجأ الشاكى
عليك من ربِّك اللهِ الصلاةُ كما منا عليك السلامُ الطيِّبُ الزَّاكى

والزملكانى يقرر حقيقة كبرى ، فمحمد عليه السلام خير خلق الله وماحى الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله فى حماه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة فى المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى البابى من مدحة نبوية بديعة[1] :

إليك رسولَ الله قد جاء ضارعًا أخو عَثْرةٍ يرجو الإقالةَ مذنبُ
فبابُك بابُ الله ما عنه مهربٌ وطالبُه من غير بابك يُحْجَبُ
أغثْنى تدارَكْنى أجِرْنى فإننى لَقًى. إن تراخى عنه لُطْفُكَ يَعْطُبُ
وأبعدُ شىءٍ أن تضيق بِرُحْبها شفاعتُك العظمى بنا فَهْىَ أرحبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقيله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغيث به لائذًا أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس فى المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول فى هذا اليوم ، فيفوز برضوان ربه . وللبابى يتوسل[2] :

ياحىٌّ ياقَيُّوم قد بهَرَ العقولَ سَنَا بهائِكْ
إنى سألتك بالذى جمعَ القلوبَ على ولائكْ
نورِ الوجود خلاصةِ الـ ـكونين صفوةِ أنبيائكْ
إلا نظرتَ لمستغيـ ـثٍ عائذٍ بك من بلائكْ
فالطُفْ به فيما جَرى فى طَىِّ عِلْمك من قضائكْ

(١) الديوان ص ٤ ونفحة الريحانة ٢/٤٣٧
(٢) الديوان ص ٥ ونفحة الريحانه ٢/٤٣٤

والبابى يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذى جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد فى كل نور : فى نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذه وسيلة إلى ربه وشفيعه ، حتى يلطف به فى قضائه وماجرى فى طى علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوى وهو أول من نقف عنده .

عبد [1] العزيز الأنصارى

هو شرف الدين الصاحب عبدالعزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصارى ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها فى عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزورى سنة ٥٧٢ جعله من نوابه . ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعل فيه مع ابن أبى عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقى فى منصبه مدة ، أو لعله عمل فى منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة فى سوق الخوَّاصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله فى القضاء وبين التجارة أو كان يزاولها حين يعفى منه . وولد له ابنه عبدالعزيز سنة ٥٨٦ وطبيعى أن يُعْنَى القاضى بتربية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكبَّ عبدالعزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب مافيها نزل به بغداد فاستمع بها إل شيخ المدرسة النظامية ، وكان لايزال فى نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حماة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧–٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبدالعزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائحه وكذلك فى زوجته عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويغتصب إمارة حماة بعده السلطان قلج أرسلان (٦١٧–٦٢٦هـ) ويظل بها عبدالعزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦–٦٤٢) فابتسمت الدنيا له إذ اتخذه المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، وَيتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢–٦٨٣هـ) وكان صبيا فى العاشرة

---

(١) انظر فى عبدالعزيز الأنصارى وشعره فوات الوفيات ٥٩٨/١ وذيل مرآة الزمان ٢٣٩/٢ والعبر ٢٦٨/٥ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٣/٤ وطبقات الشافعية ٢٥٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢١٤/٧ والخزانة للحموى ص ٢٤٩ ، ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) بتحقيق د . عمر موسى

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبعلبك ودمشق الذى ذكره مترجموه فى هذا التاريخ . وكان يلمُّ بحلب ، ونجده سنة ٦٤٧ فى صحبة أميرها الناصر يوسف فى زيارته لمصر . ويعود إلى حماة وتنعقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُعْقَدُ فى هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصارى الحلقات لسماع الحديث عنه ، وممن سمعه منه الحافظ الدمياطى محدث مصر واليونينى محدث دمشق ، ويقول ابن تَغْرى بَرْى عنه : « برع فى الفقه والحديث والأدب وأفتى ودرس وتقدم عند الملوك وترسَّل عنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا » وينقل صاحب الفوات عن الصفدى فى وصف شعره وشاعريته قوله : « لا أعرف فى شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أسرّى ولا أكثر ، وإن له فى لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وعلقته ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافى المتمكنة والتركيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ » وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعى والأنصارى شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى فى شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله فى أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدها تجاه حجرته الشريفة :

ياخاتمَ الرُّسْل الكرام وفارجَ الـ	ـكُرَب العِظام بفعلهِ والمِقْولِ
ها قد وردْنا من ضَريحك موردًا	نُشْفَى به من كل داءٍ مُعْضِلِ
أدعوك للجُلَّى وتلك شفاعةٌ	لم تَرْضَ لى أنى أخاف وأنت لى
ولقد أتيتك مادحا لتجيزنى	فى الحشر كاساتِ الرَّحيقِ السَّلْسَلِ

وهو يستغيث بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرِّج الكرب الذى ورد على جدثه الطاهر ومعينه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه – حين يشتد بالناس أوار العطش ولهيبه – كاسات من الرحيق الصافى . ويقول فى مدحة نبوية ثانية :

ويلاىَ من نومىَ المشرَّدْ	وآهِ من شَمْلِىَ المبدَّدْ
غُصْنُ نَقًا حَلَّ عَقْد صَبرْى	بِلينِ خَصْرٍ يكاد يُعْقَدْ
فمن رأى ذلك الوشاحَ الـ	ـصَّائمَ صلِّى على محمَّدْ

أشرفُ مَنْ فى النهار ناجَى وخيرُ مَنْ فى الدُّجى تَهجَّدْ
وغيرُ بِدْعٍ لمستجيرٍ به إذا نال كلَّ مَقْصِدْ

وموسيقى الأبيات بديعة . وقد تخلص تخلصًا رائعا من الغزل إلى مديح المصطفى بذكر وشاح صاحبته الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينه ، فمن رآها – كما يقول – صلَّى على الرسول إعجابا بها واستحسانا لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهارا وتهجده ليلا وأن من يستجير به ينال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقتبسا منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطرا اقتبس قافية .

وزهديات الأنصارى كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيق فى متاع الحياة الدنيا . وفى إحداها يقول :

مُلْكُ القناعةِ عزٌّ يُذْهِبُ الذِّلَّهْ فمن حَوَى كَنْزه لم يُؤتَ من قِلَّهْ
تبًّا لذى طمعٍ مستعبدٍ ومُنًى لاتستقرُّ على رِىٍّ بلا غُلَّهْ
يسومُ إبلاعَهُ من رِيقهِ بَلَلاً وليس يَرْوَى ولو أبلعتْهُ دِجْلَهْ
فانْقَعْ غَليلَك من نَهْلٍ بلا عَلَلٍ واقنع إذا أكلةٌ أغنتْك عن أكلَهْ

فالقناعة – فى رأيه – عز مابعده عز ، ومن حوى كنزها الذى لايفنى لم يَشْكُ من قلة ، ويقول تبًّا لصاحب طمع يستعبده ومنى لاتروى أبدا فدائما صاحبها يعانى من غُلَّة العطش وحرارته ، ودائما يريد أن يبلَّ ريقه ، إذ لا يَرْوى أبدا ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكتف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشَّربة الأولى من الماء ولاتطلب العلل أو الشربة الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وابْغِ أخرى دائمٌ فيـ ـها نعيمٌ وشقاءُ
وتَنصَّلْ من خَطيئا تٍ لها النارُ جزاءُ
وإذا صحّ لك القو تُ على الدنيا العَفاءُ
كلُّ ما فى هذه الدُّنْـ ـيا قُصاراهُ الفناءُ
ولأَهْلُ الخُلْدِ فى الخُلْـ ـدِ ولله البقاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئاته وذنوبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشىء فكل مافيها هالك وفان ، والسعادة إنما هى لأهل الجنة ولله البقاء والدوام .

وفى الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالايلزم . ومر بنا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى فى خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والاداء .

محمد [1] بن سوَّار

هو محمد بن سوَّار بن إسراءيل بن الخَضِر الشيبانى الدمشقى المولد والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفى سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عربى المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريرى المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ ومما يشهد لقولهم مرثيته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبٌ كما شاء الإلهُ جليلُ ذُهِلتْ لديه بصائرٌ وعقولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غَوِىَ نهجهم وضلوا السبيل وسُدِل الحجاب الإلهى دون أبصار المتصوفة وخُتمت دنان خمر الحب الربانى . وإذا رجعنا إلى الحريرى عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتون بقتله — كما أفتى فقهاء حلب بقتل السهروردى — لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردى المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريرى لم تؤد به إلى انحرافات ، والسبب فى ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرَّد ولبس المرقعات الصوفية ورحل فى البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى — فيمن لقى — شهاب الدين السهروردى الصوفى السنى البغدادى وسمع عليه وأجلسه فى ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوف

---

(١) انظر فى محمد بن سوار وشعره وأخباره فوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٣٠٩/٥ والو[illegible] ١٤٢/٣ وراجع ترجمة على بن [illegible] الحريرى فى الفوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبد المنعم الخيمى فى الفوات ٤٥٨/٢ .

مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هى أن ابن سوار حجّ ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة — وكانت لابن الخيمى المتصوف المصرى تلميذ ابن الفارض — فادعاها لنفسه ، فراجعه ابن الخيمى وعبثا حاول أن يقنعه ، فتحاكما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروى ، وكانت القصيدة بائية ، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة ، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمى .

ولم نصل بين ابن سَوار والسهروردى البغدادى لأنه كان سنى التصوف وتصوف ابن سوار فلسفى ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربى ومافيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إن أمَّ صحبى سَمُرًا أو أَراكْ ... فإنما مقصدهم أن أراكْ
وإن ترنَّمْتُ بذكر الحِمَى ... فإنما عَقْدُ ضميرى حِماكْ
وإن بكى صَبٌّ حبيبًا فما ... أحسب إلا أنه قد بكَاكْ
ملأتَ كلَّ الكون عشقا فما ... أعرف قلبا خاليا من هَواكْ

فصَحبه إن أمُّوا به شجر السَّمُرِ والأراك فقصدهم أن يرى ربه محبوبه الذى يحل فى كل مكان ، وهو حين يذكر فى غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حبيبًا إنما يبكيه لأنه يحلُّ فى جميع الأشخاص والأشياء ، فما يعشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويعشقونه ، وكأن كل شىء مرآة له ، إذ يتراءى فى كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يامَنْ يشير إليهم المتكلّمُ ... وإليهمُ يتوجَّهُ المتظلِّمُ
وعليهمُ يحلو التأسُّفُ والأسى ... ويلذُّ لوعاتِ الغرام المُغْرَمُ
هذا الوجودُ وإن تعدَّد ظاهرا ... وحياتِكم مافيه إلا أنتمُ
وإذا نطقتُ ففى صفات جمالكم ... وإذا مألتُ الكائناتِ فعنكمُ
وإذا سَكِرْتُ فمن مُدامةِ حبِّكم ... وبذكركم فى سَكْرتى أترنَّم
وإذا نظمتُ تغزلا فى صورةٍ ... فلأجل حُسْنِكمُ المحجَّبِ أنظمُ
أنتم حقيقةُ كلِّ موجودٍ بَدَا ... ووجودُ هذى الكائنات توهُّمُ

والأبيات صريحة فى أنه مؤمن بوحدة الوجود . فالله يحل فى الوجود جميعه ، وكل مافيه من

أشخاص وأشياء مظاهر له ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أوسأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جماله المشاهد فى كل جميل . وهو إذا سكر فسكره من خمر الحب الإلهى الذى يترنَّم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار . وهو إذا تغزل فى صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الربانى . وإنه لينبثُّ فى كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهى نفس الأفكار التى تلقانا عند ابن عربى ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خَلا منه طَرْفى وامْتلا منه خاطرى ... فطَرْفى له شاكٍ وقلبىَ شاكرُ
ولو أننى أنصفتُ لم تَشْكُ مُقْلتى ... بِعادا ودارتُ الوجود مظاهرُ

فالله يمتزج بروحه ولا يراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقلته أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لاتبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهَدٌ فى كل الأشياء . وكان للمتصوفةلأيامه ليال يحيونها بالدفوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السَّحَر ، ويُرْوَى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموى ليلة من تلك الليالى فغنى المغنى من شعره :

وما أنت غيرُ الكَوْنِ بل أنت عينهُ ... ويفهمُ هذا السرَّ مَنْ هو ذائقُ

فقال ابن الحكم : كفر ، فقال ابن سوار : لا ، ماكفر ، لكن أنت ماتفهم ، وتشَّوش المجلس . وفى البيت وفى بقية الشعر مايدل على ابن سوار يريد أن يقول – على أساس مايزعمه من فكرة وحدة الوجود – إن الله هو الكون أو الوجود بجميع مافيه ، والفكرة بأساسها – كما يرفضها ابن الحكم – يرفضها – كما ذكرنا ذلك أيضا – أهل السنة وأصحاب التصوف السنى .

عفيف [1] الدين التلمسانى

هو سليمان بن على بن عبدالله الكوفى التلمسانى ، وتدل نسبته إلى تلمسان فى الجزائر على أنه مغربى الأصل ، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آبائه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو ،

(١) انظر فى عفيف الدين وأشعاره وأخباره فوات الوفيات ٣٦٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمى ٤٦٣/٢ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٩/٨ والشذرات ٤١٢/٥ وديوان الحقائق ومجموع الرقائق لعبد الغنى النابلسى ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ . وديوان عفيف الدين طبع قديما بالقاهرة وبيروت .

ولا نعرف شيئا عن نشأته ، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ماعندهم ، ولعل ذلك ماجعله يؤلف فى كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعا كانت فى دمشق وفى دواوينها وخاصة فى بيت المال . وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوى أحد أتباع ابن عربى ، ويبدو أنه اعتنق مذهبه فى وحدة الوجود على يده . ونزل معه فى العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكثا بها مدة ، رُزق فى أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقى فى القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوى ابن سبعين الأندلسى ، وكان على شاكلة القونوى وابن عربى يؤمن بوحدة الوجود ، فأكّدها فى نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها فى الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربى ، ومذهبه فى وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أوكما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل فى أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعا بين عمله فى دواوين دمشق وعمله فى ميدان التصوف حتى توفى سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين – كما ذكرنا آنفا – تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربى ، مما جعله يُعْنَى بشرح أعقد كتبه فى التصوف ونقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفى مكتبة ولى الدين بإستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربى فى ديوانه « ترجمان الأشواق » من مثل قوله فى قصيدته التى نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمى المذكورة آنفا فى ترجمة ابن سوار :

لولا الحِمَى وظباءٌ بالحِمَى عُرُبُ ... ماكان فى البارق النَّجْدِىِّ لى أرَبُ
وفى رياض بيوت الحىِّ من إضَمٍ ... وَرْدٌ جَنِىٌّ ومن أكمامه النُّقَبُ
لاتقدر الحُجْبُ أن تُخْفِى محاسنَه ... وإنما فى سَناه الحجْبُ تَحْتَجِبُ
ياسالما فى الهوى مما أكابدُه ... رفقًا بأحشاءِ صَبٍّ شَفَّه الوَصَبُ
هل السلامةُ إلا [illegible] أموتَ [illegible] ... وَجْدًا وإلا فبُقْيايَ هىَ العطَبُ

وعفيف الدين يستشه[illegible] [illegible] الرمان . ويتحدث عنه تلميحا ورمزيا ، فلولا

حماه ما كان له أمل وراء البارق النجدى ، ولا كان له ولوع بورد الخدود فى رياض بيوت الحى من إضم . ويتصور كأن الأقنعة أو الحجب التى تُسْدَلُ على تلك الخدود هى أكمام الورود ، ويقول إن الحجب لاتستطيع أن تخفى محاسنه إذ تذوب فى سناه وضيائه المشرق . ويذكر أن أحشاءه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هى فى أن يموت فى حب ربه وجدا وهيامًا ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكارى يفيقون من سكرهم ، وهو لايفيق مما شرب من دَنّ هذا الحب الإلهى :

لاتحسبوا أننى عن حبّكم سالى ... وحقّكم لم يزل حالى بكم حالى
يا ساكنين فؤادى وهْو منزلكم ... لاعشتُ يوما أراه منكمُ خالى
أنتم بقلبىَ أدْنَى من جَوَانِحه ... حقًّا على رغم حُسّادى وعُذّالى
أوضحتمُ لمحبّيكم طريقَكمُ ... حاشاكمُ تهجرونى بعد إيصالى

وفى البيت الأول تورية واضحة فى كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما فى « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لايزال بحبه لربه حاليا أومزدانا بحلى بديعة . ويقول إن محبوبه الإلهى حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوانحه ومايحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التى كان يؤمن بها ابن عربى . ويتضرع إلى محبوبه الربانى أن لايهجره بعد وصله . ويقول :

يا أُصَيْحابى بذى سَلَمٍ ... مَنْ أُصيْحابى وما السَّلَمُ
أنا عنى اليوم فى شُغُلٍ ... فاذكرونى إن نسيتكمُ
وأشيعوا فى الحِمَى خَبَرى ... وأذيعوا السرَّ واكْتَتِمُوا
لايرانى الحِبُّ مُنْثَنِيًا ... بعد مالاحتْ لىَ الخِيَمُ
كنتُ قبل اليوم فى حُلُمٍ ... وتقضّى ذلك الحُلُمُ
فزمانى كلُّه طَرَبٌ ... دونه الأوتار والنَّغَمُ

إنه على وشك أن يتحقق أمله فى الوصول إلى محبوبه الإلهى . وهو لذلك يخاطب أصحابه بذى سلم أحد المواضع النجدية التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له خيام محبوبه ، كما يقول ، فيعلن أنه فى شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن يثنى عن طريقه إلى محبوبه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضى عهد الحلم . وهو لذلك فرح

مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحون . ولما فى هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفى مندلع خَمَّسها عبدالغنى النابلسى مع أبيات متصلة بهما لم ننشدها ، وهو وجد كان لايزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا .

عبدالغنى [1] النابلسى

هو عبدالغنى بن إسماعيل النابلسى الدمشقى الحنفى ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموى . ودرس فيها بالمدرسة القيمرية وبجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبدالغنى سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُنى بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفى ، ودفعه إلى حلقات العلماء فى دمشق يأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوى والتفسير ، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرؤها . وسرعان مانضج علميا وهو لايزال فى العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت فى كتاب سلك الدرر للمرادى سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعنى بالتصوف ، فانتظم فى الطريقة القادرية ثم فى الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح المعية فى الطريقة النقشبندية ، ثم جذبه إليه مذهب ابن عربى الصوفى الفلسفى ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح فى ديوانه الصوفى . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التى آمن بها من قبله إمامه ابن عربى ، ويردِّد دائما : ليس فى الكون سواه ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلّى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه اللهُ وجودُ واحدُ ... حكمُهُ فينا حرامُ وحلالْ
وهْوَ حقٌّ وسواهُ باطلُ ... قال فى القرآن والسبع الطِّوالْ
أينما أنتم تولُّوا ثَمَّ وَجْـ ... ـهُ الإلهِ الحقِّ محمودِ الفعالْ

(١) انظر فى عبدالغنى النابلسى وأشعاره وأخباره كتاب سلك الدرر ٣/٥٣٠ ومفحة الريحانة ٢/١٣٧ وتاريخ الجبرتى ١/١٥٤ وله ديوان الحقائق ومجموع الرقائق فى صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية ، طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية فى ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى فى سورة البقرة : (ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تُوَلُّوا فَثَم وجه الله) والآية إنما تشير إلى ان أى مكان من المشرق والمغرب يأمرهم الله باتخاذه قبلة تكون هناك جهته التى أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالٌّ بها ومتحد معها كما يذهب النابلسى وابن عربى زاعمين أن ذاته هى ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ويقول النابلسى متحدثا بلسان الذات العلية :

ألا إن ذاتى ذاتُ كلِّ الخلائقِ ... وسَلْ عنه ذا علمٍ كريمِ الخلائقِ
ولا صفةٌ إلا ومنِّى تعيَّنتْ ... لموصوفها إذ كنتُ أصلَ الدقائق
أنا الجوهرُ السَّارِى بغير سِرايةٍ ... ألوحُ وأخفى فى جميع الحقائق
أنا النورُ نورُ العَيْن منى تكوَّنَتْ ... عيونُ البَرايا من مَشُوقٍ وشائق

فالله جوهر الوجود ، يلوح ويخفى ولاسواه ، إذ كل مافى الكون مظاهر له ، يصبغها بوجوده . ويحاول النابلسى جاهدا أن يفرِّق بين القول بالحلول وأن الله يحلُّ فى جميع الموجودات وبين مايزعمه هو وابن عربى من وحدة الوجود ، وإنها لتبلغ به أن يقول فى مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا وليس فى الحضرة ثانى » أو كما يقول :

اثنان نحن وفى الحقيقة واحدٌ ... لكنْ أنا الأدنى وأنت الأكبَرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله –جل جلاله– واحد . وهى نفسها فكرة وحدةالوجود التى يحاول جاهدا الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من أصحاب التصوف الفلسفى على طريقة ابن عربى . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يحيله رموزا خالصة على نحو مانجد فى شرحه لأول بيت فى القصيدة الباثية بالديوان :

سائقَ الأظعانِ يَطْوى البِيدَ طَىَّ ... مُنْعِمًا عَرِّجْ على كُثْبان طَىَّ

يقول : « سائق الأظعان هو الله تعالى ، والأظعان : الناس وكثبان طىّ كناية عن المقامات المحمدية التى عددها كرمال الكثيب ، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصِّله – كما يوصِّل جميع المؤمنين – إليها » . وابن الفارض لم يقصد إلى شىء من هذا كله ، إنما خاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طى على حافتى نجد والحجاز ليتمهَّل قليلا حتى يحيِّى من يمر بهم فى طريقه إلى الحجاز معبرا بذلك عن حنينه إليه . وطبيعى وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربى وتمثل كثيرا من

أشعار المتصوفة مخمسا لها ومشطرا كما يتضح فى ديوانه الصوفى أن نراه تارة يتغزل فى بثينة وعلوة وسلمى وزينب وسعاد ، وهى كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الخمر وساقيها وكأسها وشرابها وحَبابها وما تحدث فى روحه من نشوة وفى عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام والمتكلمين إذ يدعون إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقلى الفلسفى لا كما يؤمن المتصوفة بأن هذا العلم إنما يستمد من القلب ، وشتان بين علم العقل والفلسفة وعلم المحبة القلبية . وله قصيدة بديعة فى الاستغفار من ذنوبه وخطاياه امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله فى الرسول غير قصيدة نبوية وغير موشح وقد افتتح موشحا له بقوله :

نورُ سَطَعَ المصطفى منه جميعُ الكائناتِ وبه كان الترقى فى جميع الدَّرجاتِ

ونحسُّ فى الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية فى الكون بأسره التى تحفظ عليه كيانه وتصون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفى الديوان موشحات ودوبيتات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها المواليا العامية ، وفى الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن « كان وكان » العامى .

٦

شعراء شعبيون

لانقصد بشعبية الشعراء فى الشام أنهم نشأوا فى بيئاتها الشعبية من سلالة عامتها ، فذاك ما جمهور الشعراء فى كل بلد عربى انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرستقراطية ، وإذا استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أسرته الحمدانية ممن أنشد أشعارهم الثعالبى وأيضا بهرام شاه الأيوبى صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونفرًا من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العماد فى خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب « حصن كيفا » حفيد الملك العادل أخى صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا مَنْ عداهم من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف عملا يكفل له عيشه ، مثل يحيى الخباز الحموى الذى أنشد له صاحب الخزانة طرائفَ كثيرة من توريات ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعته . شمس الدين المزين : لانريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم فى أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامية لسانا لهم فى أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع فى الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هى : الزجل والمواليا ؛ والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ فى الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه فى القرن الخامس ثم شاع فى البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع فى البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا فى الشام يدلّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة فى كتابه : « العاطل الحالى » ينوِّه بشيوع الزجل لزمنة هناك ، ويقول إنه لقى من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطى إمام هذا الفن الشعبى بها كما لقى بحلب راوية ثقة من أكبر رواته هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديوانى الزجالين الأندلسيين الكبيرين : ابن قزمان ومدغليس حُملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويذكر صفى الدين أنه كان قد حصل على الديوانين فى زيارته لمصر (٧٢٣ – ٧٢٦ هـ) غير أنهما كانا بخط مغربى تعسر قراءة بعضه ، فصحح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته ، وأجاز له بخطه مانقله عن نسخته ، وعرَّفه بمشايخ الزجل فى حلب . ومن أعلامه البارعين حينئذ بحماة علاء الدين بن مقاتل ، وسنترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هى القطر الوحيد الذى احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التى عثر عليها جنز برج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن .. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألَّف شرحا على بردة البوصيرى باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم[1] ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا . وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها ، وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصيح استطرافا ، وقلما تُصَاغ صياغة فصيحة ، إذ تَطَّرد فيها

(١) انظر خزانة الأدب للحموى ص ٦ ، ١٧٦ .

العامية ، ومما يلقانا من طرائفها قول جوبان بن مسعود الدمشقى المتوفى فى حدود سنة ٦٨٠ للهجرة[١] :

أفارقُه وأول إنى قد اتْسلَّيتْ   وريحْت قلبى وزال الهم واتخَلِّيتْ
واذكر مساويه فى حقى إذا وليِّتْ   وإذا رجعْ نِسيتِ الكلّ واتخَلِّيت

والتورية واضحة فى كلمة « واتخلِّيت » المكررة قافيةً للبيتين ، والأولى من التخلِّى بمعنى أنه أصبح خاليا من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقى صاحبته أصابه ذهول ، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وُبْعد عن الهم .

ونلتقى بمعاصره عز الدين بن السويدى المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسى سيد قومه الصحابى الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان – كما يقول بعض من ترجموا له – من أسرع الناس بديهة فى قول الشعر وأحسنهم إنشادا ، وله مواليا[٢] :

البدر والسَّعد ذا شِبْهك وذا نَجْمك   والقدّ واللَّحْظ ذا رمحك وذا سَهْمك
والبغض والحب ذا قِسمى وذا قِسْمك   والمسك والحسن ذا خالكْ وذا عَمك

فصاحبته تشبه البدر ونجمها أو حظها السعد ، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجنتيها والحسن يعم كل أعضائها وفى كلمة « عمّكَ » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذى قايله لاختها والقصد تُسمعنا   ما النحو؟ قالت لها : نِحْنا بأجمعنا
الرفع والنصب نا واتنى ومن معنا   للجر ، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نحنا هى نحن بالفصحى . ونظَم أصحاب المواليا فى جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلَّها المتصوفة فنظموا مواليات كثيرة . ونلتقى فى ديوان عبدالغنى النابلسى بنحو ثمانين مواليا نكتفى منها بقوله[٣] :

---

(١) فوات الوفيات ٢١٨/١ .

(٢) راجع فى هذه المواليا وتاليتها المنهل الصافى لابن تغرى بردى ١٢٧/١

(٣) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٢٦٨ .

الباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العيّوق
واخرج عن الكل أنت الكل يامعتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق

فليس فى الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل فى جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى هى وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمنشدون ببغداد لإيقاظ الناس كى يتناولوا سحورهم استعدادا للصوم ، وكانوا يختمون كل بيتين منها أو دور بكلمة « قوما للسحور » ومن هنا أخذت اسمها وشاعت فى البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لنظم الحكايات والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه المواعظ والزهديات والحكم كما مر بنا فى قسم مصر . ولابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة[1] منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذى امتُحنت به الشام ومصر سنة وفاته . وفى ديوان عبدالغنى النابلسى منظومة صوفية منه فى عشرين[2] بيتا تصور عقيدته فى وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة مجملة عن أبى العلاء بن مقاتل الزجال .

أبو[3] العلاء بن مقاتل

هو على بن مقاتل الحموى ولد سنة ٦٧٤ بحماة ، ويقول ابن حجر إنه « تعانى الأدب فتعلم الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الأزجال فاشتهر بها ، وأزجاله فى ديوان مفرد فى مجلدين.. وكان هذا الفن قد انتهى إليه فى زمنه .. وكانت وفاته فى أوائل سنة ٧٦١ » ويذكر ابن حجر أن له زجلا مشهورا فى الملك المؤيد صاحب حماة (٧١٠–٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصفى الحلى . وكان الصفى قد نزل حماة ومدح المؤيد وابنه الأفضل فى أواخر العقد الثانى وأوائل الثالث من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموى فى خزانته قائلا : « وكان الشيخ علاء الدين بن مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بَجْدته وأبا عُذْرته ، وممن سُلِّمت إليه مقاليد هذا الفن.. وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدى نبذة من غرر أزجاله فى تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار فى ترجمته » . وينشد الحموى زجله المشهور آنف الذكر وهو يسهله على هذا النمط :

---

(١) تتمة المختصر فى أخبار البشر لابن الوردى ٣٠٢/٢ .

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٣٥٦ .

(٣) انظر فى أبى العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب للحموى ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنشد النواجى له فى كتابة عقود اللآل مئة أزجال (انظر الفهرس)

قلبى يحب تيَّاه ليس يعشق إلا إياه فازمن وقف وحيَّاه يَرْصد على مُحَيَّاه
بَدْر السَّما لو يطبع من رام وصالُو يعْطُبْ
صغيّر يحيّر فى أمرو غزال قهر بِسُمْرو ليث الهوى ونمرو فاعجبْ لصغر عمرو
ريم ابن عشرٍ وأربع أرْدَى الأُسود وأرْعب
أذكر نهار تبعتو وروحى كنت بعتو وخَيَّب ما فيه طمعتو فقال وقد سمعتو
ارجع ولالى تتبع أخشى عليك لتتعب
كم قدامو وخلفو مشيت مطيع لحلفو ورُمْت لَثْم كَفُّو قال دَعْ مُناك وكُفُّو
فإنَّ لثم إصْبَعْ من الثريَّا أصعب

وبمجرد أن نسمح هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول « فتيَّاه » تجذب إياه و « حيّاه » تجذب محياه ، وبالمثل « يطبع » فى القفل تجذب يعطب . وكأننا فى مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم فى الزجل اتساقا بديعا ، وكأنه عطر للآذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاقتها ، فصاحبته بدر فى السماء لاتصل إليه الأيدى ، وهى غزال تقهر بعينيها الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوثَ والنمور . وتهلكها وترعبها رعبا . ونصحته أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول لثم كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثرياوأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهى صنعة زجلية رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس المقلوب فى الأفعال تلاعبا يدل على مبلغ مهارته ، فيطبع تقابلها يعطب ، وأربع تقابلها أرعب ، وتتبع تقابلها تتعب وإصبع تقابلها أصعب . وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التى لاتحتوى فنا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها تغريد عندليب مع مايحمِّل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، وبحق يقول صاحب الخزانة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الخزانة زجلين آخرين بديعين .